



الطبعة الاولى 1994
الدار السعودية
للابحاث (5000)



الطبعة الثانية
1995 مطبعة الاخاء
دمشق (3000)



الطبعة الثالثة
1996 دار الوراق
(2000) نسخة

عامر بدر حسون

كتاب القسوة

محاولة لإفساد ما تبقى من حياتكم

الطبعة الرابعة
الطبعة الاولى في بغداد
٢٠١٧

ليس (كتاب القسوة) هو مما يعود به المسافرون الى بلدانهم وبيوتهم.
العائدون يحملون في حقائبهم عادة، العطور وربطات العنق والقمصان الحريرية وعلب الشوكولاتة، والكثير الكثير من الحكايات الطريفة والعجيبة عن سنوات ترحالهم وتغربهم.
كتاب القسوة، وكلما طلب قارئ أو صديق ان اكتب له اهداء عليه وجدتني اكتب اعتذارا! فآلام البشر، وآلام السيدة ليلى خصوصا، ليست مما يُهدى.



طيلة سنوات منفاي، وقد امتدت لاكثر من ثلاثين سنة، حشرت نفسي في صفوف الناطقين بالمحنة العراقية، وبدلا من جمع الاصداف من شواطئ العالم، أو جمع الغرائب والنوادر من اسواق التحف والأنتيكا، كنت أُلْمِم قصص العراقيين واوجاعهم واحلامهم المؤجلة.. التقطها من هنا وهناك وانشرها في الصحف والاذاعات والتلفزيونات التي كنت اجد فيها فسحة لنشر مثل هذه (البضاعة) المؤلمة!
وكان من بين ما انجزته هذا الكتاب، الذي وضعته بشكل خاص للقارئ العربي، وقدمته مصحوبا بايضاح واعتذار.
الايضاح كان يتركز على قيامي بتخفيف الكثير من الوقائع حتى يبدو الحدث قابلا للتصديق من هذا القارئ، والاعتذار عن شحنة الالم التي انطوت عليها الصفحات المخففة!
لكن الكتابات التي نشرت عنه في الصحافة العربية، اعتبرته كتابا عنيفا وقاسيا، وان موجات الالم التي فيه، تنطوي على مبالغة!
بل ان بعض الكتابات فضلت اعتباره قصة او رواية كي تتمكن من قبول ما فيه! خلافا لعراقيين اعتبروه يومها كتابا مخففا أكثر مما يجب!



ولقد وجدتني، ازاء تلك الانطباعات، اشير في الطبعة الثانية (1995) والثالثة (1996)، الى انه

ليس عملا ادبيا ينتمي للمخيلة القصصية او الروائية، فقد وجدت في ذلك التوصيف اهانة لآلام من كتبت عنهم.
واليوم، وإذ أقدم هذا الكتاب للقارئ العراقي، الذي بات يعرف اكثر مني ومن الضحية تفاصيل الاهوال التي كان يعيشها، اجدني مضطرا للإيضاح: ان هدف النشر ليس لتهييج المواجع او شحذ روح الانتقام، فهي روح مدمرة للمجتمعات والافراد، بل لأيماني بضرورة توثيق التجربة وتحويلها الى خبرة.
هذا الكتاب، ومئات الكتب الاخرى، التي لابد ان تصدر، هي بعض اسلحتنا لحماية اطفالنا ومستقبلنا من تكرار المأساة.
علينا، اكثر من أي شيء اخر، ان نحول محنة العراق الى ذاكرة يقظة، ذاكرة ترصد وتستعيد وتحذر كلما لاح في الافق ما ينذر بإمكانية عودة التعذيب.
اتمنى ان يتواصل القارئ مع هذا الكتاب باعتباره كتابا ضد التعذيب أكثر مما هو ضد نظام حكم سابق.
ان الذين يعيشون بلا ذاكرة، يعيدون ارتكاب الاخطاء نفسها، لكنهم يدفعون الثمن.. مضاعفا! لن نسمح بهذا مرة اخرى!

عامر بدر حسون

دمشق 15–4–2003

ارسلت هذه المقدمة الخاصة بالطبعة العراقية عقب سقوط النظام، لأحد الاصدقاء الناشرين في بغداد ليقوم بطباعتها.. لكن هذا لم يحصل.. وقد رأيت ان احتفظ بالمقدمة التي كتبتها يومذاك لانها تعبر عن هدف نشر الكتاب في العراق..
وواضح كم كنت واهما بخصوص الثقافة العراقية السائدة عندما توقعت ان تصدر مئات الكتب عن تلك المرحلة!
وها نحن بعد كل هذه السنوات نكاد ان نكون بلا ذاكرة مدونة ومنشورة يمكن تقديمها للاجيال الجديدة، عن مرحلة هي الاخطر في تاريخ بلادنا.
مع تمنياتي واملي بالقضاء على التعذيب في العراق.

رجاء وتحذير

تظنون كل هذا خيالا
ألا تسمعونني؟
لا تسمعون مع انها مأساتكم
وقد رأيتها فجأة فجأة ..
فانجرحت
يا من لا تتعرفون على صيحتكم في
صيحتي
ألا تسمعونني؟!
اراغون

عندما تنتهي من قراءة هذه الصفحات ستتساءل:
. هل تستحق الحياة كل هذا؟
وقد تضيف، بعد تأمل في ما حصل:
. لماذا كتب عليهم كل هذا العذاب؟
قد لا يمكنك التصور بأن ماحصل يمكن أن ينتهي في يوم ما.
فأنت، مثلهم ربما، قد لاتعرف متى بدأت هذه المأساة؟
أهي لعنة آلهة بابل وآشور؟
أيكون ماحصل هو الدرس الأخير لمن بقي على قيد الحياة خالياً من جرح الجسد والكرامة؟
قالت لي السيدة ليلى بيأس:
. ما الفائدة؟ لماذا علي أن أتكلم؟ هل أنا أول أو آخر من سجن وتعذب؟ ألا يعرف العالم بما حصل هناك؟
انتقلت مرارة أسئلتها إليّ.. وحتى اللحظة لا أدري إن كنت سأكتب عما حصل لها هناك؟ وإن كتبت لا أدري إن كنت سأدفعه إلى المطبعة؟ إذ من يريد، في هذه الأيام خصوصاً، أن يقرأ عن مأساة مواطنين، أفراد، في وقت يهدد الفناء شعباً ووطناً بأكمله؟
إن الأنظار كلها تتجه نحو «البطولة»... الكل يبحث عن بطل ولو كان زائفاً.
الكل يبحث عن منتصر ما، حتى لو كان انتصاره على شعب أعزل ومعزول عن العالم والبشر، كما هو الحال مع الشعب العراقي.
الكل يبحث عن فاتح ومحرر حتى لو كان كل فتحه وتحريره احتلال بلد صغير كما هو الحال مع الكويت.
فمن يريد الإصغاء لصراخ المعذبين في الأقبية المنفية عن قوانين البشر؟!



إن السيدة ليلى تتساءل، حتى اللحظة، عن

جدوى ما درسته وما درّسته لطلابها..

لقد كانت أستاذة في الجامعة.. تدرس الحقوق والقانون لكنها، بعد شهور وجدت نفسها تتعرض للتعذيب على يد أحد طلبتها!

. لم يكن طالباً إذن، كان ضابطاً في قوات الأمن وقد أرسلوه ليمارس عمله بصفة طالب حقوق!

يمتد صمتها طويلاً ومريراً فتكتشف أنها قد دخلت القبو مجدداً:

. كنت هناك عارية.. ومنهكة حدّ تمني الموت!

كنت منسية إلا من هؤلاء الوحوش. أتعرف معنى أن تقف أستاذة عارية أمام أحد طلابها وأن تكتشف أن هذا الطالب هو جلادها؟!

لستُ أماً، وقد لا أكون، بسبب التعذيب الذي تعرضت له، لكنني أشعر ان وقوفي هناك، بتلك الحالة، هو أقسى من وقوف الأم أمام ابنها.. الجلاد!



ترفع رأسها وتنظر إليّ مباشرة وكأنها تتهمني.. تتهم العالم:

. ألا تشعر بالخجل والرغبة في الموت وأنت تستمع إلى ما أقصّه عليك؟!

لقد صمدت آنذاك.. لكنهم لو جاءوا الآن وحققوا معي حتى دون تعذيب، فلربما انهرت وقلت لهم كل ما يريدون. فلا شيء... لا شيء يستحق هذا العذاب!

تقصدين ذاك العذاب؟

. وأقصد هذا العذاب أيضاً!

لقد كنت هناك وحيدة بين أيديهم لعدة سنوات، لكنني كنت قوية بإيماني ان العالم لو عرف ما حصل ويحصل لنا فإنه سيهتز ويفعل ما بوسعه كي لا يفنى الإنسان.. ولا يهان!

عندما خرجت إلى الحرية وجدت الكل مشغولاً عنا، وأنه لا يريد أن يعرف وإنْ

عـرف فإنـه يكتفـي بالقـول:
-هـذا مـا تتعـرض لـه المعارضـة في العـالم الثالـث!
ليـس هنـاك عـالم ثالـث ولا معارضـة! بـل ولا حكومـة!
هنـاك... في تلـك السـجون صـراع ضـار بـين الإنسـان وبـين الـدواب المتوحشـة.. لمـاذا لا يعترفـون بهـذا؟!



إنـني هنـا بعيـدة عنهـن، لكنـني أعـرف ان غـداً هـو الثلاثـاء.. وانهـن لهـذا يعشـن الآن الرعـب والهلـع كمـا لم يعشـهما مخلـوق علـى الأرض!
فيوم الثلاثاء من كل أسبوع هو يوم تنفيذ حكم الإعدام بالنساء.
لـن ينمـن هـذه الليلـة.. أعـرف هـذا. وكيـف تنـام مـن تعـرف انهـم سـيقتادونها في الصبـاح أو يقتـادون أختهـا ورفيقتهـا إلى حبـل المشـنقة؟!
لـن أواصـل الحديـث معـك، إنـني يائسـة مـن الجميـع... فلمـن تكتـب؟



أيتها السيدة!
إنهـن هنـاك.. في نفـس المكـان الـذي تعذبـت فيـه.. وهـن مثلـك يتقلـبن بـين عـذاب الأيـام والهلـع الـذي لا ينتهـي مـن اقـتراب يـوم الثلاثـاء. إنهـن هنـاك.. صامدات لسـبب وحيد هـو إيمانهـن بالإنسـان... بالعـالم.. بالبشـر.
. لقـد تخلـى عنهـن العـالم. تخلـى عـن كل العراقيـين. الجميـع تخلـى عنـا!
. فهل ستتخلين عنهن أيضاً؟
تصمت قليلاً:
. لا أريد أن أبكي.
لـو بكيـت الآن فسأشـعر انـني هزمـت أمـام ذلك الوحش. لا أدري من المنتصر فينا فعلا؟ لكنني لـن أبكي!
كنـت ممـددة علـى الأرض.. مُدمّـاة. وكـان يلهـث مـن الضـرب والـركل الـذي وجهه لي.

اقترب مني وقال:
. أنت مثل أختي. اعترفي وستكونين عمة لمنى.. منى ابنتي. سآخذك إلى بيتي وستعيشين معززة مكرمة!
آنذاك شعرت برغبة حارقة في البكاء... تمنيت لو أن لي أخاً يقف بوجه هذا الوحش. لكنني كنت وحيدة.. وحيدة كما لو كنت الإنسان الوحيد على الأرض! لم أبكِ. منذ ذلك اليوم لم أبك إلا وحدي. ولا تقل لي على من تبكين؟ فما عدت أدري!

إن الإنسان ينقرض ويولد نسل جديد من الوحوش الآدمية هناك.. في تلك السجون والأقبية!
لا همّ لي الآن سوى الحفاظ على عقلي... لا حلم لي الآن سوى أن أنام ليلة دون كوابيس... أتمنى لو أن طلابي ينسون ما تعلموه مني. إذ ما فائدة دراسة الشرائع والقوانين وأنا، مدرسة القانون في الجامعة، أقف أمام «محكمة الثورة» فأتلقى الحكم كما أتلقى البشارة:
. عشرون سنة؟!
هل تتصور أنني حزنت ساعة النطق بالحكم؟!
كلا، لقد فرحت وقد باركت لي كل السجينات هذا الحكم! فالكل هناك. الكل على الإطلاق، يتوقع الإعدام وما عداه يعتبر بمستوى البراءة!
أتعرف ما هي التهمة الرسمية التي وجهت لي، والتي حكمت بسببها بالسجن لمدة عشرين سنة؟ إنها وبالنص:
«الاشتباه بوجودي في تنظيم سري»!
لم أدرس، حتى في باب مهازل القانون، عن أحكام صدرت بتهمة الاشتباه لكن هذا هو ما حصل معي!



في فيلم سينمائي شاهدته مؤخراً، يقوم أحد المجانين بابتكار إعلان عن أحد أفلام الرعب.

يقول الإعلان:
« هذا الفيلم سيفسد ما تبقى من حياتكم»!
وقد هرع الناس لمشاهدته نظراً لما وعد به من رعب وأهوال!
أتمنى لو أنني قادر على أن أقول عن هذا الكتاب كما قال ذاك المجنون عن الفيلم:
«هذا الكتاب سيفسد ما تبقى من حياتكم»!
لكنني لست ماهراً في فن التشويق، وقصة السيدة ليلى تشكو من بعض الاضطراب في الجوانب الفنية. فهي لا تريد الحديث عن كل شيء.. بالتفصيل.
قالت لي مرة:
. لا تدفعني للحديث عن التفاصيل. فيوم أمس، وعندما عدت إلى البيت، بكيت حتى أغمي علي، لم أكن ضعيفة هكذا من قبل. لكني ما عدت أحتمل!
في آخر لقاء قالت:
. لا أريد أن أعود للحديث عن هذه القضية. إنني أشعر بالمهانة والألم عندما أستعيد تفاصيل التعذيب والإذلال.
وكما في كل مرة، حاولت أن أذكرها مجدداً بما يمكن تقديمه للسجينات المنسيات في العراق. لكنها قالت:
. لا فائدة، فما يحصل في العراق ليس سراً كي أكشفه. وربما كنت تعرف أكثر مني، بحكم مهنتك، فلماذا لا تكتب انت وغيرك ما تعرفونه؟ ثم أن ما قدمته من تفاصيل غير قليل.
تصمت قليلاً ثم تقول:
. دعني أنبهك إلى أمر غريب، فأنت طيلة هذه الجلسات كنت تسأل عن تفاصيل التحقيق والتعذيب، أما أنا فكنت أتحدث عما يحصل لنا بعد التعذيب..! عن الموت البطيء الذي نتعرض له، والكفر الذي يراودنا بكل شيء.
لماذا تركّز على مثل هذه الأمور المؤلمة؟
قلت:
. لست أنا، لكن الوضع الذي بلغ هذه

الدرجة من السوء هو الذي يدفعني للبحث في كل شيء يمكن أن يثير اهتمام القارئ. يا سيدتي إن العالم مشغول عنا، كما قلت، بكرة القدم وأخبار الفضاء والفضائح وأحياناً بالحروب إذا كانت مثيرة، وأنا أريد أن أقدم له إثارة توازي الإثارة التي يحصل عليها من تلك الأخبار!

أعرف من وضعنا في العراق، إن العالم قد يلتفت، إن التفت، إلى الجلاد لا إلى الضحية وإنه بمضي الوقت يتملكه إعجاب غريب، وبشكل ما، بقسوة الجلاد لا بألم الضحية. لقد سمعت بأذني مثقفاً عربياً يناقش ببرود مجزرة «حلبجة» باعتبارها «حلاً ما» لمشكلة «القوميات المتمردة»!

هذا المثقف بالذات استنكر وقتها المجزرة، لكنه وبمضي الوقت نسي التفاصيل وبدأ يختصر الأمر على هذا النحو:

. إنه حل ما، وإن كان قاسياً، للمشكلة!

نريد لهم أيتها السيدة، أن يشعروا بخوفٍ ما، مسؤولية ما، كلما جاء يوم الثلاثاء وكلما جاء يوم الأربعاء، موعد إعدام الرجال، وكلما مرت ساعة ولحظة يتعذب فيها إنسان في العراق!

لنعطهم ما يريدون من الأمور المثيرة، وليكن هذا من أجلهم قبل أن يكون من أجلنا.

قال لي مثقف كويتي قبل أيام:

. لو أننا «قررنا» الانتباه لما يحصل لكم ولشعبكم، فلربما كنا حمينا وطننا من احتلال صدام.

ظلّت السيدة صامتة كأنها تقول بصمتها:

. لقد قلت وتعذبت.. وعلى الآخرين أن يقولوا الآن!

من حقي أن أرتاح وأن أحاول نسيان الرعب، فبدون هذا لن أكون قادرة على استعادة ثقتي بالحياة. أعطني فرصة، سنة أو أكثر، كي أكون الشاهد لا الضحية.

في هذه اللحظات أشعر أن العالم ينهار. لقد توقفت عن سماع الأخبار وقراءة الصحف،

بهذا نصحني الطبيب، يجب أن أسافر بعيداً... قال لي الطبيب:
. يجب أن تحمي نفسك من الجنون... فهذا أهم إنجاز لك في الوقت الحاضر!



قال كونفوشيوس مختصراً حياة البشر:
«وُلدوا... تعذبوا... ماتوا»
هل أطلّ على حياة العراقيين في هذه السنوات، قبل مئات القرون وخرج بهذا الوصف المريع والدقيق لحالهم؟!



عندما أطلق سراح السيدة ليلى بموجب قرار عفو عن السجناء، قالت لهم:
. هجّروني كما فعلتم مع أهلي!
راجعوا ملف العائلة وأخبروها:
. لا تهجير ولا سفر لك.
ثم أوضحوا:
. إن عائلتك عراقية بالكامل، لكنّها هجرت إلى إيران تحت هذا البند «عائلة غير مرغوب بها»!
. لا تحاولي الهرب فالقوانين «تطورت» أثناء وجودك في السجن:
كل محاولة هرب صارت عقوبتها الإعدام!

هربت السيدة ليلى رغم ذلك. إن لديها أسباباً وجيهة للهرب:
. بالنسبة للسياسيين الذين يطلق سراحهم حسب قرارات العفو لا توجد ضمانة لحريتهم. فهم عادة يتعرضون لإلقاء القبض عليهم مجدداً، ثم تبدأ معهم جولات التعذيب والتحقيق.. لم أكن أريد أن أتعرض لهذا المصير!
لقد شاهدت في السجن الكثير من النساء اللواتي أُعدن للمحرقة والألم. إن هذا أسوأ من الموت لمرتين!
. عندما هربت في المرة الأولى لم أكن خائفة بهذا القدر.. لكنني أيضاً لم أكن مصممة على الهرب بهذا القدر.

لم أكن في الحقيقة أريد شيئاً أكثر من الهرب من هذه الغابة!



في صباح بعيد، وقبل أن تجرب معنى السجن، وبعد ساعات من السفر بالسيارة طلب منها رجال السيطرة النزول.

قالوا:

. دقيقة واحدة وستواصلين سفرك.

. نزلتُ معهم، وفي الخطوة الأولى تعثرت بعباءتي. كنت رغم ذلك شجاعة كما لو في ذروة اليأس. من البداية حسمت الأمر. عندما صعد شرطي الأمن إلى السيارة وبدأ ينظر في الهويات والوجوه عرفت من نظرته أنه يريد إذلالي كما الآخرين. لقد تعبت من الذل والخوف فغضبت وشعرت باليأس وعرفت من دناءة نظرته انه سيحاول مضايقتي... وكأنه أراد دفعي لليأس أكثر قال لي بعد خطوتين:

. هاتي حقيبتك أيضاً!

انتهى كل شيء. لقد أصبحتُ أكثر استعداداً للموت! تيقنت من هذا عندما تحركت السيارة وواصلت طريقها!

هل ارتكبت السيدة ليلى خطأً من تلك الأخطاء التي يقع فيها اليائس لحظة الهرب؟

- وضع البلد هو الخطأ!

إنهم يوقفونك كل بضعة كيلو مترات ليطلبوا هويتك، ويدققون في ملامحك بطريقة مهينة ثم يسألونك؟

. من أين وإلى أين ولماذا؟

أنا من ناحيتي قلت لهم: للسياحة، وقد بدا هذا العذر مقبولاً في نقاط التفتيش التي مررت بها، لكنك وما أن تبتعد عن بغداد والمنطقة الوسطى حتى يميل الجو للبرودة. لقد سخروا بطريقة مؤلمة من سياحتي. وانهالت تعليقاتهم:

. أستاذة وبالعباءة وتصطاف لوحدها في هذا

البرد؟ ثم... ألا تعرفين ان مناطق السياحة هنا يسيطر عليها العصاة والخونة؟
تظاهرت بالسذاجة:
- لا أعرف.. لقد شاهدت في التلفزيون هذه المناطق والاحتفالات التي تقام فيها.
قال لي أحدهم:
. هل ترين تلك الغرفة؟ سنأخذك لتصطافين فيها ريثما نتأكد من كل شيء!
وكأنه افتتح باب الضحك والسخرية أمامهم جميعاً!
كلهم صار يعتقد أنه خفيف الدم وأنه ينتظر مني أن أضحك وأتوسل.
الذي اقتادني إلى غرفة التوقيف غمز وهو يواصل الضحك لنكاته البذيئة وقال:
. إذا كنت تخافين من النوم وحدك أخبريني و.. ضحك مرة أخرى!

كان الوقت ظهراً لكن حديثه عن النوم أخافني وجعلني أشعر بأن إقامتي ستطول!
في الحادية عشرة مساء جاؤوا إلي واقتادوني للتحقيق.
. ولكن ماذا حصل قبل هذا؟
. لا شيء. لقد بقيت في الغرفة وحدي.. لم يقدموا لي الطعام أو حتى الماء، رفضوا التكلم معي أو الإجابة على أسئلتي!



الانتظار!.
إنه أحد أساليب التعذيب التي تأخذ طابعاً ذاتياً. يأخذون الضحية ويطلبون منها أن تنتظر دون توجيه أية تهمة!
وبمضي الوقت، وهذا ماحصل مع السيدة ليلى، تبدأ الاحتمالات ثم تتحول إلى مخاوف.
في هذه الساعات يراجع المتهم سيرة حياته ويأخذ بالشك بكثيرين، إنه يتحول لمجموعة أسئلة:
- هل قلت كلاماً ممنوعاً أمام أناس

تنقصهم الأمانة؟
هل أمسكوا بأحد الذين أعرفهم وقال كلاماً عني؟ فلانة؟ لا.. إنها هاربة منذ سنوات.. فلان؟ ربما ولكن.. لا لا!
ماذا سيفعلون بي؟ هل سأتحمل التعذيب؟ هل أرد على شتائمهم؟ إذا توسلت فهل سيكون هذا مفيداً؟!

ثم تبدأ أحلام اليقظة...
بعد قليل سيأتون ويقولون:
. سامحينا لقد أخطأنا!.
أو.. ربما سيكون بينهم آدمي، ينظر إلي ويتذكر ان له أماً أو أختاً فيتفهم كل شيء وينحني على المحقق ويهمس بأذنه:
. إنني أعرفها!
لكن هذه الأحلام تطعن بسرعة. إنها تتهاوى لوحدها، هكذا فجأة... ومثلما تأتي تروح لتترك الرأس والقلب نهباً للمخاوف! وبشكل خفي أيضاً، وكما هو حال السيدة ليلى يجرب السجين إحدى اللعب المفضلة في الانتظار المخيف.
يبدأ السجين، وبشكل سري، باختبار قدرته على تحمل الألم الجسدي، فيضغط بيده على مكان من جسمه ويبدأ بالقسوة! لكن الألم يذكر الإنسان بآدميته فتتراخى اليد ويبدأ التواطؤ الخفي:
- لأوفر طاقتي على تحمل الألم!
ويتذكر السجين، في الانتظار، انه سمع من المحظوظين الذين تجاوزوا المحنة حديثاً آخر:
. ان الألم الجسدي ليس هو الذي يسبب الانهيار، وطاقة التحمل لا علاقة لها بقوة الجسد. إن الروح هي التي تصمد!
يطمئن السجين لهذا الدواء. ويتذكر انه ليس أقل روحاً من غيره. وتطوف بخاطره صورته وهو يحكي بعد حين لأهله وأصدقائه:
. تألمت في البداية لكنني قررت المقاومة...

ونجحت!

في لحظات كهذه يتذكر الناس والحياة بكل التفاصيل، لكنه يرتعش هلعاً ووحشة عندما يكتشف انه هنا وحيد ومعزول عن العالم!
هذه لعبة الانتظار.. وإذا كانت السيدة ليلى قد نسيت تفاصيلها ولم ترد التحدث عنها، فلأن ذاكرتها تزدحم بالمشاهد الرهيبة.

إنها الساعة الحادية عشرة ليلاً. وها هي الخطى تقترب منها. يتجمع الجلد ثم يسترخي مجدداً... لكن القلب لا يتوقف عن الخفقان السريع! فالآن.. وفي هذه اللحظات سيتم التأكد من كل شيء!



قبل أن يقتادوني إلى غرفة المحقق كبلّوا يديّ بالأغلال إلى الخلف، ورموا عباءتي، وأمروني بالسير دون كلام، لم أكن أنوي الكلام على أية حال.
في غرفة التحقيق لم يكن هناك سوى طاولة ودولاب حديدي تُرك بابه مفتوحاً كي أرى أدوات التعذيب!
أوقفوني أمام الدولاب كي لا أتوقف عن النظر إليه وإلى المحقق.
سألني عن اسمي وعمري ومهنتي وعنواني بشكل عادي، وأضاف سؤالاً آخر عن انتمائي السياسي فقلت انني مستقلة ثم سألني بشكل مفاجئ:
. لماذا كنت تحاولين الهرب خارج العراق؟!

فوجئت، وبالغت في إظهار مفاجأتي بالسؤال. قلت إنني جئت إلى الشمال بهدف السياحة.
قال لي ببرود مجرم:
. هل أنت عاهرة؟!

لم أعرف إن كان يسألني أو يوجه لي شتيمة، تلجلجت في الإجابة، وأنا أتردد بين الغضب والإجابة بالنفي، أوضحَ:

- لو كنت عاهرة فسنطلق سراحك فوراً كي تشوفي شغلك!

دون تردد قلت:

- لا..!..

قال:

- نحن نعرف هذا ولم يبق أمامنا سوى أن نعاملك كمناضلة!

ثم أطلق ضحكة اقشعر لها بدني.

- نحن نعرف كل شيء عنك ومن الأفضل لك ولنا أن تعترفي حتى ينتهي كل شيء على خير!

تمتمت ببعض كلمات غير مترابطة لانشغالي بمتابعة حركة الشرطيين ورائي:

- بماذا أعترف؟ إذا كنتم تعرفون عني كل شيء فمعنى هذا أني بريئة و...

نهض من مكانه فصمت... ثم استدار إلى الدولاب الحديدي ومد يده باتجاه أدوات التعذيب، وأخذ يفتش فيها عن شيء، لكنه استدار فجأة وهو يدمدم:

- أين وضعت الملف؟

كان أمامه على الطاولة، لكنه تعمد إخافتي. فتحه وأخذ يتحدث كما لو كان يقرأ:

- حتى عام ١٩٨٣ مدرّسة في جامعة(...) ثم تمّ نقلك إلى وظيفة في مدينة العمارة، حفاظاً على سلامة تفكير الطلبة. ولم تلتحقي بوظيفتك!

وقطع حديثه، وقال متبرماً من سوء عمل الأجهزة الأخرى:

- لا أدري كيف تم تعيينك في الجامعة؟ ها.. ماذا فعلت كي يعينوك في الجامعة؟

قلت:

- كُنت الأولى وقد عينت كمعيدة استناداً للقانون.

ضرب على الملف بيده وقال:
- كذابة فكونك الأولى لا يعني تعيينك في الجامعة. لابد أنك كنت ماهرة في إخفاء أوضاعك السياسية!
هدأ قليلاً، ثم أضاف مخاطباً كاتب المحضر:
- سجل اعترافاتها!
قلت:
- ولكن... بماذا أعترف؟
لم ينظر إلي، وخاطب كاتب المحضر:
خذ أوراقك واخرج.. يبدو انها غير جاهزة الآن!

خرج كاتب المحضر واقترب الضابط مني، ثم وبحركة سريعة ومفاجئة صفعني بقوة!
لم أستطع التماسك فوقعت على الأرض، اقترب مني حتى كاد حذاؤه يلامس وجهي، وبدأ يشتم ثم تطورت الشتيمة إلى «فشار» بذيء جداً!
عندما وصل إلى الكلام البذيء لم يكن غاضباً، كان يبدو وكأنه يمارس عملاً اعتاده!
أخذ يتحدث عن الاغتصاب، وسمّى كل شيء باسمه بأكثر الكلمات بذاءة، كان يتكلم وكنت أودّ لو أن الأرض تبتلعني لخجلي وإحساسي بالعار من هذه البذاءة والتهديدات.
(فيما بعد عرفت أن كل مسؤولي التحقيق يرددون نفس الكلمات البذيئة وبنفس التسلسل مما يؤكد أنهم يدرسونها كأداة تعذيب!)
أيُّ ذلٍّ هذا؟!
صارت الغرفة كابوساً.. وتأكدت مرة أخرى أن لاشيء فيها سوى الجلادين الثلاثة وأنا وحيدة بينهم ويداي مقيدتان إلى الخلف، والليل يلف كل شيء في الخارج.

ازداد إحساسي بالقيد عندما أردت أن أسد أذني بيدي كي لا أسمع ذلك الكلام المهين. لم يتوقف، بل أخذ يضيف بعض الحركات البذيئة إلى كلامه.. مدّ يده إلى أزرار بنطاله، فأخذت أصرخ وأزحف بين أقدامهم.

كان الصراخ هو وسيلتي الوحيدة للامتناع عن سماع كلماته. وضع حذاءه على رأسي وقال:

- ولا كلمة!

ابتعد قليلاً وقال:

- هيا انهضي.

نهضت فأخذ يدور حولي وهو يتساءل:

- لماذا تصرخين؟ هل فعلنا بك شيئاً؟ إنك لم تريْ شيئاً بعد!

ابتعد قليلاً ودون أن يلتفت قال لهما:

- شوفوا شغلكم!

لم أكد ألتفت حتى انهالت علي الضربات. كانت الضربات تأتي من كل مكان. ضربات بالأيدي والأرجل وبالهراوات الملفوفة بأسلاك حديدية زيادة في الإيلام. كانت أكثر الضربات إيلاماً تلك الضربات المفاجئة التي لا أتوقعها.

كنت أنتظر الضرب بالهراوة فتأتيني لطمة مفاجئة على وجهي. أنتظر لطمة فتأتي الهراوة من الخلف!

انتبهت وأنا أقاوم الإغماء من الألم أنهم يركزون أحياناً على الضرب في مواقع محددة ومدروسة.

كانوا يرفعون يدي من وراء ظهري ويضربون أسفل الظهر، ونتيجة هذه الضربات حصل عندي النزف، ولربما أصبحت عاقراً مدى الحياة رغم مراجعة الأطباء!

تصمت وتضيف كأنها تواسي نفسها:

- وما حاجتي إلى الأطفال؟ من يريد أطفالاً

في غابة الوحوش هذه؟!

لم يكن مسموحاً لي أن أبقى على الأرض أكثر من دقيقة. فعندما كنت أتهاوى على الأرض كانوا يستخدمون أحذيتهم في الضرب إضافة إلى الهراوات، وفي بعض الأحيان وقبل أن أصل إلى الأرض كان يتلقاني أحدهم بضربة ترفعني عن الأرض! لم يكن ذلك ألماً، كان أسوأ من الألم... شعرت أن النار تشتعل تحت الجلد، وأن المخالب الشرسة تنهشني في كل مكان، وكانت أوردتي وشراييني تكتظ بالدم وتوشك على الانفجار. أما رأسي فقد أصبح عدوّي إذ أن كل الآلام تركزت فيه، وأخذ يكبر ولم أكن انتظر سوى أن ينفجر! لا أستطيع أن أصف ذلك الألم، إذ أن الإنسان لم ير مثيلاً له كي يقارنه به ويحس بما يعنيه.
أكثر من مرة أوشكت على الإغماء، لكنه كان يقف هناك وهو يصرخ:
. لا تتوقفوا! إنها كاذبة!
فكانوا يرفعوني من شعري، وكنت أصرخ وأنا أشعر أنهم يعلقوني من قلبي وأوردتي وشراييني. ثم أصرخ عند أول ضربة، وكان يقول بانتصار:
. ألم اقل لكم إنها تتصنع الإغماء؟!
باستمرار الضرب شعرت انه لن ينقذني منهم سوى الموت. وبدا لي الموت كأنه أفضل شيء في الوجود!
هكذا انتهى كل شيء.. ليس ثمة من خيار في تلك اللحظات سوى التعرض لهذا العذاب المريع أو الاستسلام للموت.
لكن الموت لا يأتي...
إن ضرباتهم هي التي تأتي من كل مكان!

يمتد صمت السيدة ليلى حتى تبدو، هذه المرة، وكأنها قررت الكف نهائيا عن الكلام. أشعر في داخلي بألم وخجل لا يعرف كيف

يعبر عن نفسه.
ففي تلك اللحظات التي كان الوحوش يعذبون فيها السيدة ليلى كنت، مثلكم، مشغولاً بشيء آخر: متعة أو بلادة ما، وكأن العالم، وكأن العراق بلا وحوش يتقاذفون المرأة بأحذيتهم، تماماً كما هو الحال الآن!

فجأة خرجت السيدة ليلى عن صمتها وكأنها قرأت أفكاري:
. أتدري؟.. ربما كنت أصف لك الآن ليس ما حصل معي فقط آنذاك. بل ما يحصل الآن لعشرات ومئات النساء، صدقني إن يوم الثلاثاء لم يكن كلّه شراً، فإعدام النساء هو أهون بكثير من ذلك العذاب الذي تعرضت ويتعرضن له، إنه الراحة الأبدية كما يقولون!
أردت لها أن تواصل، لكنها فتحت يديها بعجز وهي تقول:
. ماذا تتوقع مني أن أضيف؟! لقد استمر التعذيب لساعتين، وكلما أغمي عليّ يسكبون الماء البارد على رأسي ثم يعاودون الضرب!
لقد نسوا التحقيق وتحول الأمر كله إلى تعذيب. وفي النهاية وعندما تهاويت كلياً وفقدت كل إحساس بالوجود جاءوا بالطبيب الذي أيقظني وقال لهم:
. اتركوها هذه الليلة!
قالها كما لو أنه يحدد مواعيد أخذ الدواء. لكنني شعرت بامتنان كبير له، فلقد أعلن نهاية الألم لهذه الليلة.
سحبوني من يدي على الأرض. إذ يبدو أنهم فكوا وثاقي أثناء الإغماء، وحاولت وأنا في الباب أن ألقي نظرة على الغرفة، لكنني شعرت أن جفنيَّ في تلك اللحظة كانا أثقل من أن أرفعهما مجدداً، وسمعت صوته الكريه وهو يودّعني:
. أنت لم تشاهدي شيئاً بعد!
وكان هذه المرة صادقاً في كلامه!



عندما تمرد آدم على جنة الله، لم يفعل له شيئاً سوى أن منحه حق الاختيار وألقاه إلى الأرض. لقد اختار آدم الحرية، حرية الاختيار، وفضلها على النعيم فكانت الأرض حريته. أراد الأرض بيتا للأبناء يعيشون ويجربون فيه كل شيء:

الصح والخطأ... الخنوع والتمرد، الرضا والثورة، الحزن والسعادة.

كانت الأرض الاختبار الأعظم لأعظم شيء في الإنسان: العقل. لكن العراق يبدو وكأنه بلد منفي عن الأرض. إن له من القوانين مالا يخطر على بال!

السيدة ليلى، وهي من نسل آدم، طريد الفردوس، لم تفعل شيئاً سوى الاعتزاز بعقلها وكرامتها كإنسانة رأت إهانة العقل والجريمة والقتل فتمردت على هذا «النعيم».. وهي لم تفعل هذا جهاراً.. لم تكتب في جريدة ولم تدل بحديث إلى التلفزيون أو الإذاعة... لم تقف في الناس خطيبة ولم تعلن أن ما يحصل هو قتل للإنسان.

لقد همست بأسئلة صغيرة في غرفة صغيرة مغلقة:

. أنختلف نحن عن بقية البشر؟ أنتخلى عن عقلنا لأنهم يقولون أن الرئيس يفكر نيابة عنا؟ أعليّ أن أفرح لمقتل أخوتي وتشريدهم لمجرد أنهم يقولون أن علي أن أفرح؟

ومع ذلك فإن هذه الأسئلة لم تصل إليهم. لكنهم طالما تساءلوا:

. لماذا لا تنتمي إلى الحزب؟!

في كل مرّة كان يستدعيها ضابط أمن الجامعة (وفي كل جامعة ودائرة حكومية وظيفة باسم ضابط الأمن) وكان يسألها:

. إذا لم يكن لديك اعتراض علينا فلماذا لا تنتمين لنا؟

وكانت ترد:

. لا أملك الوقت.. إنني مسؤولة عن إعالة

إخوتي وعائلتي... ثم إنني من عائلة محافظة ولا يسمح لي بالخروج في غير أوقات العمل فكان يرد عليها:
. لا. أنت معادية للحزب والثورة.
وفي نهاية كل حديث كان يهدد:
. ستدفعين الثمن عما قريب!
وكان أول الثمن نقلها من الجامعة إلى موظفة في مدينة نائية. وقال لها قبل أن تغادر:
. يمكن إلغاء قرار النقل هذا بكلمة منك. وقعّي وسيكون كل شيء على ما يرام.

لم توقّع، ولم تلتحق بوظيفتها. لقد اختارت الحفاظ على آدميتها كاملة، غير منقوصة! وكأنها تبدأ من الصفر اشترت ماكينة للخياطة وبدأت تبحث عما تريد بين غرزات الإبرة!
وجاء من يخبرها:
إنهم يفتشون عنك!
وكانت تعرف من آلاف النساء والرجال الذين وقعوا في قبضتهم، معنى أن يلقى القبض عليها.

. ذات يوم عرفت أنهم أخذوا أختي إلى الأمن. تصور كان يوم ثلاثاء! ثم أطلقوا سراحها في نفس اليوم. ذهبت إليها. كانت معلمة وقد بدأت بالعمل على انجاز معاملتها التقاعدية بعد تسعة عشر عاماً من التعليم، لم تُطق إلحاحهم عليها بأن تنتمي إلى الحزب فقررت الاستقالة مستعينة بوضعها الصحي.
لم تتحدث معنا عندما عادت من مركز الأمن.
كانت حزينة كئيبة، وفي غاية الانطفاء. لم تجلس معنا لحظة واحدة ولم تجب عن أي سؤال من زوجها وأبنائها ومني.
لقد بدأت تعمل في البيت. غسلت الصحون التي كانت مغسولة ومسحت الأرض التي

مسحتها أنا، ورتبت الملابس ولم تترك شيئاً في البيت دون أن تمر بيدها عليه!

لكنها كانت صامتة، وكنت أرقبها، وأشعر أن أسنانها ستتحطم من فرط ضغطها عليها.

استمرت حتى الليل في هذه الحركة الصامتة، وعندما انتهى كل شيء وقفت أمامنا، ورأت الأسئلة والخوف في وجوهنا، تلفتت بيننا وفتحت يديها قليلاً ثم أنزلتهما بيأس وتهاوت على الأرض دون أي صوت! تشنج وجهها وماتت يدها وبدأ اللعاب يسيل من فمها. وبسرعة نقلناها إلى المستشفى.

قال الطبيب:

. لقد تعرضت لصدمة كبيرة وأصيبت بالشلل!

كنت أخاف على حياتها، شعرت أنها تريد أن تموت. منذ أن عادت شعرت أنها تريد أن تموت، لكنني لم أنتبه لشعوري منذ البداية، الآن تيقنت أنها كانت تريد الموت!

سألت الطبيب:

. هل ستعيش؟

قال وهو ينظر إلى زوجها:

. لقد كانت الصدمة كبيرة. ماذا حصل لها؟

قلت، وكأنني أضع كل شجاعتي في هذا الاتهام:

. لقد أخذوها للأمن وعادت دون أن تنطق بكلمة!

وكأنه فهم كل شيء. هزّ رأسه بأسف وقال:

. ابقوا بالقرب منها.

جلست قربها وأنا أشعر أنها لو أرادت فستنهض وتعود كما كانت. كانت تنظر إلّي وقد فقدت القدرة على النطق والحركة. أخذت أكلمّها بهمس في أذنها وأنا ألهث:

ـ كلنا بحاجة لك. أنا وأطفالك وزوجك فلا تتركينا! قال الطبيب أنك ستشفين بسرعة إذا أردت، وإلا فإنهم سيشفونك بالأدوية. هيا أنهضي معي الآن.

تكلمت معها كثيراً وأنا أمسك بيدها...

ـ هيا انهضي معي لن تتركيني وحدي.. أنا أختك الصغيرة!

سحبوني من عندها بصعوبة، ورأيت الطبيب يفحصها ثم يغطي وجهها إلى الأبد! ماذا فعلوا بها. ماذا قالوا لها؟

لا أدري!

كثيراً ما فكرت أنها قد انتحرت وماتت بإرادتها. بصقت عليهم وعلى الحياة التي تقضيها بينهم، وقررت أن لا مكان لها، كإنسانة ومعلمة ومربية، بين هؤلاء الوحوش!

إنها الأجمل... أختي الكبيرة قتلوها!

لقد تم كل شيء أمامنا. أمام الزوج والأطفال، أمام الطبيب والممرضات والمرضى، أمام المحلة وأمام طلابها وطالباتها. أمام العراق والعالم كله. لم تتوقف الدراسة يوماً. ولم تتوقف حتى الشمس عن الشروق!

وكان علي أن أختفي حتى عن مجلس التعزية المقام على روحها!

كلهم قالوا لي أن أختفي عن الأنظار فلطالما استخدمت مناسبات الحزن لإلقاء القبض على المطاردين!

لن أراها مرة أخرى!



لم تكن السيدة ليلى متشائمة حين وضعت الموت في مصاف أفضل الاحتمالات وأهونها شراً. لقد كانت البدائل مخيفة:

سيستمر التعذيب إن لم أعطهم بعض الأسماء. لكن إن أعطيتهم ما يريدون

فسوف يستدعونهم ثم يبدأون بتعذيبهم ومطالبتهم بالمزيد من الأسماء وهكذا. إنه احتمال مخيف أكثر من أي شيء آخر، وسيكون هناك الكثير من الضحايا الأبرياء.

كنت أعرف أناساً لم يحتملوا التعذيب فاعترفوا على كل اسم خطر لهم، وجيء بنساء من البيوت ورجال من العمل وفتيات من المدارس، ووضعوا في نفس الموضع السابق:

. اعترفوا!

ولأن التعذيب لا يمكن تصوره، فإن الأسماء والأشياء التي قيلت تحت وطأة الألم لا يمكن تصورها.

لقد التقيت في السجون بنساء اعترفن بانتمائهن إلى أحزاب ومنظمات لا يعرفن عنها شيئاً. قيل لهن:

. بدلاً من استمرار التعذيب والاغتصاب اعترفن وفي المحكمة تستطعن قول كل شيء !

لكنني مررت بمحكمة الثورة العجيبة وعرفت أن المتهم هو الوحيد الذي لا يحق له الكلام!

لا أستطيع أن أعطي درساً في الصمود. كل ما حصل معي هو أنني وضعت إيماني كله بفكرة تبدو للآخرين بشعة جداً:

الموت هو أشرف وأهون الحلول!

حصل هذا منذ البدء.

قبل الفجر بقليل استيقظت على صرخات الألم المنبعثة من كل مكان في جسدي. لعلني كنت في كابوس.

لكن الألم كان حقيقياً، كان هناك النزف أيضاً ولم يكن معي المزيد من الفوط الصحية أو المناديل فاستخدمت بعض ملابسي. لم أكن قادرة على تلمس مواضع الجراح أو الكدمات فقد كانت عملية التفحص لها بمثابة تعذيب ذاتي!

اشتهيت أن أبكي وأن أنهار وأقع في حضن

أليف.

تمنيت صدر أمي كي أخفي رأسي وأبكي من العار والألم والمهانة حتى النهاية، لم أحلم بالهرب أو بأي شيء آخر، فقط حلمت بأن أبكي على ذلك الصدر ثم أموت!

فجأة تحولت هذه الرغبة إلى حلم بالموت، لو مُتّ الآن فسأتخلص من هذا العذاب وسأصيبهم بخيبة أمل. بدا لي الموت أفضل من أي شيء في العالم لكن كيف أصل إليه؟ بالانتحار؟!

حاولت أن أتحرك كي أختبر الفرصة الممكنة للموت. ومع أول حركة صرخ جسدي دفعة واحدة بكل الألم! خفت من الألم المتزايد، وأوحى لي هذا الألم بفكرة غريبة:

. لأنتظر قليلاً، فهم حتى الآن لم يوجهوا لي أية تهمة. وتذكرت أنهم لم يحسموا أمري أو أمر التهمة التي يريدون توجيهها لي. إنهم بانتظار أي شيء مني كي يأخذ الاتهام وجهته. كانت تلك نقطة لصالحي.

وشيئاً فشيئاً لف ضباب كثيف كل شيء حولي فعرفت أنني أقترب من النوم أو الإغماء.

كنت أتلاشى تحت وطأة الإجهاد والألم فأفقد الرغبة والقدرة على الصحو!

تلتفت السيدة ليلى إلي، وتقول:

. إنني الآن أوشك على النوم... لا رغبة لي في الكلام!

لكنها أمام صمتي وانتظاري تواصل:

. كلما تذكرت تلك الوحشة وذلك الألم أسأل نفسي إن كانت الحياة تستحق كل ذلك؟

كان علي أن أنتحر قرب ذلك الفجر، وربما كان علي أن أفعل قبل ذلك. فما رأيته هو الكفر بكل شيء.

الكفر بالحياة وبالموت بالوحوش وبالبشر، أنت تستطيع أن تصف كل هذا... حتى

الموت يمكنك تقريبه للآخر حتى يحس به. لكن ماذا عن الألم والمهانة ماذا عن الإحساس بالوحشة والوحدة؟ هل تستطيع وصف هذا؟!
قد تقارن الألم الذي تعرضت له بآلام الأسنان أو الصداع أو سواهما من الآلام... لكن الأمر مختلف والألم مضاعف لاعتبارات لا علاقة لها بالجسد وتحمله للآلام.
هناك ألم الوحدة والإحساس بأنك الإنسان الوحيد في غرفة الوحوش هذه، لكنك لا تستطيع ان تطمئن لوصف الوحش والإنسان، فالوحوش قد تقضي عليك.. تقتلك وتريحك، أما هؤلاء فلا هم لهم سوى تعذيبك ودفعك إلى الكفر!
لا يسمحون لك بالموت ولا بالحياة. تصور أن الطبيب موجود دائماً بالقرب منهم!
لقد شاهدته في كل مكان، يأتي عند الإغماء يفتح حقيبته ثم يتفحص الجسد ويقرر:
. إنها تتظاهر بالإغماء.
أو يقول:
. دعوها هذه الليلة.
وفي مرة قال:
. يجب أن تقدم لها تغذية جيدة لثلاثة أيام مع هذا الدواء. وبعدها ستكون قادرة على المواصلة!
كأن مواصلة التعذيب لعبتي أو خياري!



في الليلة التالية، فتح الباب اثنان منهم وأمراني بالنهوض، تلكأت قليلاً فالألم كان مستوطناً في كل مكان من جسدي ساعدني أحدهم على النهوض ثم اقتاداني دون أن ينطقا بكلمة. تفاءلت قليلاً لأنهما لم يضعا الأغلال في يدي هذه المرة. إنهما اللذان قاما بضربي وتعذيبي يوم أمس لكنهما الآن يظهران مثل أي مخلوقين طبيعيين.
في الطريق إلى غرفة التعذيب طردت كل

فكرة راودتني وركزت على فكرة الموت!
أدخلاني إلى الغرفة واقتاداني إلى قرب الطاولة.
لم يكن المحقق هناك. طلبا مني الجلوس على الكرسي ووقفا بعيداً عني يهمهمان بكلام هامس وهما ينظران إلي.
لم يكن ثمة من كلام.. كان هناك الانتظار، هما ينتظران البدء بعملهما وأنا تتقاذفني آلام الأمس ومخاوف الساعات الرهيبة القادمة.
جفلت ونشف ريقي عندما فتح الباب بقوة ودخل المحقق، اقترب مني وكان يبدو عليه المرح والحيوية. أتذكر انه كان يضع عطراً كريهاً شعرت كما لو أنه سكب قنينة كاملة على نفسه قال:
. أهلاً آنسة ليلى...
ثم التفت إلى الجلادين، وقال وهو يضحك:
. مازالت آنسة... أليس كذلك؟!
أطلق ضحكة وأضاف:
. شغلكم لا يعجبني هذه الأيام!
والتفت إلي:
. ها؟ ما رأيك بعملهم؟
لم أجب. كان كل شيء هنا كريهاً، هو وهم وفرحه بنفسه والعطر الذي يضعه..
قال:
. ألا تعرفين لماذا أنا فرحان اليوم؟
قلت:
. إنني لا اعرف لم أنا موجودة هنا..وما هي تهمتي ؟
ضحك وقال:
. تهمة؟ لا أدري لماذا أنت سيئة الظن بنا؟ ومع ذلك فلدي بشرى لك!
جلس على الكرسي ومال على الطاولة حتى اقترب بوجهه مني وقال:
. مبروك.. لقد ظهرت براءتك!
لم أصدق.. تحركت في مكاني وبدأت أنظر إليه فواصل:
. راجعنا كل شيء عنك فوجدنا انك...

قحبة!
انتفضت فواصل ببرود:
. نعم... مجرد قحبة وعادية أيضاً لماذا لم تقولي هذا من البداية؟!
لم أعرف إن كان يسخر ويشتم أم يتحدث جاداً. لكنه أضاف:
. هل كنت تتصورين أننا سنفعلها مجاناً؟ نحن أيضاً ندفع!
مد يده إلى جيبه وأخرج خمسة دنانير ووضعها على الطاولة ودفعها باتجاهي قائلاً:
. هل رأيت؟ أنا أدفع مقدماً عن الجماعة. يا الله يا شباب شوفوا شغلكم!
لم أعرف حقيقة ما يحصل، لكنهما عندما اقتربا مني صرخت فأوقفهما بحركة من يده وهو يقول:
. انتظرا انتظرا.
والتفت إلي قائلاً:
. إذن أنت مناضلة. أتعرفين معنى هذا؟ معناه أننا سنفعلها مجاناً! فماذا تقولين؟!
وضعت يدي على أذني وعيني وأخذت أصرخ... أصرخ... أصرخ.. وعندما انتهيت قال بهدوء:
. ماذا تتصورين؟ هل نحن وحوش؟ إن النزيف الذي لديك مقزز ثم أنني انتهيت الآن من واحدة أجمل منك!
التفت إلى أحدهما، وقال:
ليدخل كاتب المحضر.
وعاد إلي:
. في الحقيقة نحن لا نحتاج إلى اعترافاتك على نفسك، فالمعلومات التي لدينا عنك وعن عائلتك كافية، فقط نريد أن نعرف مكان أخويك والأشخاص الذين تتصلين بهم. الأسئلة ستتركز على هذه الأمور فقط جاوبي بهدوء وصراحة وسيكون كل شيء على ما يرام.

قلت إنني لا أعرف عم يتحدث وأنني

أجهل مكان إخوتي منذ أربع سنين، فانهال علي بالكلام البذيء. نفس الكلام الذي ردده بالأمس وبنفس التسلسل ونهض وهو يقول:

. سنجرب شيئاً آخر... ينطق الصخر!

والتفت إلى كاتب المحضر قائلاً:

لا تبتعد فسنناديك قريباً. إنها لن تقاوم كثيراً.

نهضت فزعة، فقال لي:

. اجلسي فكل شيء يعمل بالكهرباء هنا!

أوثقا يدي إلى مسند الكرسي ثم نزعا قميصي وحمالة الصدر وهم يواصلون كلامهم البذيء، وكنت أصرخ... أصرخ:

. قتلة.. مجرمون!

وكنت أتلقى الصفعات. ثم بدأوا بربط بعض الأسلاك على جسدي، كانت الأسلاك تنتهي بكلابات صغيرة. علقوا اثنتين منهما في أذني، واثنتين في صدري، وواحدة على شفتي السفلى ثم على يدي وقدمي، وكنت أرتجف وأتمنى الموت!

وضع يده على مقبض الآلة التي على الطاولة وقال:

. هل تريدين الكلام؟

قلت:

. أنا بريئة.. أنا إنسانة!

ندمت كثيراً على قولي، إذ ما معنى أن أقول هنا أنني إنسانة؟ وهل يريدون شيئاً غير تدمير الإنسان؟

أدار المقبض بيده، فشعرت بالصاعقة تنزل علي!

لا أستطيع أن أصف هذا، لم يبق شيء في مكانه، شعرت ان عيناي خرجتا من محجريهما، وأن أوردتي تريد أن تنفجر، وأن أنياب ومخالب حيوانات تنهش في كل مكان في جسدي!

توقف قليلاً ثم نظر إلي ودون أن يسألني أدار المقبض بيده من جديد. أحسست أنني

أتمـزق وأتحـول إلى أشـلاء. أحسسـت أنـني أنضغـط إلى أصغـر مـا يمكـن.. أحسسـت بالسـكاكين والمخالب تنهشـني. شـعرت أن شـفتي المربوطـة بالكهربـاء تكبر وان أذنّـي تتمزقـان وأن ثديّـي اقتلعـا مـن مكانهمـا وأن يدي ورجلي وكل جزء مني يهرب يتناثر ثم يعـود ليرتطـم بقـوة!

لا أعرف أن اصف الألم.. ينبغي ألاّ تلح على هذا إنـه مهين ومؤلم. إنني الآن وإذ أتذكر الآلام أكاد أكفر بكل شيء! ومع ذلك فأنا محظوظـة، فهـا أنـا خـارج غرفـة التعذيـب، خارج السجن، خارج العراق. وأنا لم أتعرض لتعذيب كبير قياساً للأخريات. إنني مازلت حيـة وغيري مـتن تحت التعذيب أو خرجـن مشوهات!

لا أدري كـم اسـتغرق التعذيـب بالكهربـاء وليس ثمة من مشاعر يمكن أن استذكرها فـالألم كـان صاعقـاً، ووجوههـم، منـذ اللحظة الأولى انتهت أن تكون وجوهاً أدمية. لكن لا، أتذكر أنهم كانوا يتسلون بتعذيبي وأن أحدهـم كـان، وكلمـا ارتعشـت مـن الصعقـة الكهربائيـة، يقـف أمامـي ويرتعش مثـل الراقصـات فكانـوا يضحكـون!

مرة توقف مطولاً وأخذ يسألني:

.هـل أنـادي كاتـب المحضـر أم أنـك تريديـن الاسـتمرار في الرقـص؟!

وأثنـاء كلامـه كان يديـر المقبض الرهيب فتسـري الكهرباء والألم المدمر في كل خليـة من جسمي!



في الليلـة الثالثـة وقد كنت في غايـة الهزال والإنهاك، ذلك أنني لم أستطع، لم أرد، تذوق الطعام جاءوا ورموا لي ببنطلون وطلبوا مني أن ارتديه تحت التنورة.

لم أفهـم لـماذا هـذا الطلـب؟ لكنـني ارتديـت البنطلـون القـذر ثـم اقتادونـي إلى غرفـة

التعذيب من جديد.
التفتت إلي وقالت:
- هل تظن أن قراءك سيستمتعون بقراءة هذه الفصول المؤلمة من التعذيب؟!
- ومن يبحث عن المتعة هنا؟ إنني فقط أريد أن أكتب ما حصل معك ومع غيرك.
إذا تألموا فليس أنا أو أنت من تسبب في ألمهم، بل ذاك الذي يطعم وحوشه من لحم الإنسان!
قالت السيدة ليلى:
- ربما تبدو الليلة الثالثة، لك ولغيرك، أهون أيام التعذيب.. لكنني أتذكرها كواحدة من أسوأ وأقسى ليالي التعذيب.
أخذوني إلى ركن في الغرفة، كانت هناك فلقة لم أنتبه لوجودها من قبل.
المحقق كان في مكانه وقد أصدر أوامره لهم:
- اربطوها بالفلقة!
رفعوا رجلي وربطوهما ثم اختلط الكلام البذيء بالنصائح:
- لماذا لا تعترفين وترتاحين. أنت ترين يا عاهرة أننا نستمتع بعملنا، وعاجلاً أم آجلاً ستعترفين!
حتى الآن لم أفهم لماذا طلبوا مني لبس البنطلون؟
بالأمس عروني وهددوني بالاغتصاب، واليوم انهالوا علّي بكلامهم البذيء لكنهم ستروا ساقي أثناء التعذيب!

بعد قليل بدأ الضرب بالعصى الثقيلة على باطن القدمين.
قبل ان يبدأوا الضرب نزل الدم إلى رأسي لكنني بعد أول ضربة شعرت به يتجمع هناك في القدمين كأنه يبحث عن منفذ ليتفجر منه.
ضربة اثنتان ثلاث عشرة مئة... لم أعد أدري. كان ضرباً كافراً وكنت أشعر أنني سأختنق من الألم... شعرت أن قدمّي

تورمتا.. ثم شاغت روحي عندما تفجر الدم في كل مكان من إبهام قدمي اليمنى لقد جاءت إحدى الضربات على الإظفر فغرزته، مكسوراً، في اللحم. واندفع الدم مثل النافورة. لم يتوقفا إلا بعد أن شعرا بالإنهاك، وكان المحقق يقف بالقرب مني مصدراً أوامره:
. أقوى! اجلدوا العاهرة!

و... انتهى كل شيء. سحبوني إلى غرفتي وبذاءات المحقق وتهديداته تتوعدني بالليلة القادمة، وأنا كنت أشعر أن هذا الألم هو أقسى ما يمكن أن يتعرض له مخلوق. إنني أتذكر الكهرباء والضرب العشوائي. لكن الألم هنا مختلف إنه يتركز في مكان محدد. ويستمر الألم بعد التعذيب لفترة طويلة وينتشر إلى كل مكان. آنذاك تتمنى لو أنك تقطع رجليك للتخلص من النار. أنت عادة لا تعرف أين تضع رجليك. فوق... تحت؟ تحركهما أم تحميهما من كل حركة؟

لم أكن أعرف شيئاً كثيراً عن الفلقة، أعرف عن الكهرباء أشياء كثيرة. ذات مرة عاد أخي إلى البيت بعد غياب دام عدة شهور. كانت ملابسه رثة ومظهره مخيفاً، وكان حافي القدمين. لقد كان في الأمن وهناك عذبوه.. سألته عما جرى له. لم يرد. وبالإشارة أفهمني أنه قد أصيب بالخرس! أخذته بملابسه الرثة إلى الطبيب. لم يبق في البيت اكثر من خمس دقائق. ثم اخذته بملابسه الرثة الى الطبيب.
للوهلة الأولى ظنه الطبيب مجنوناً، فكتب أخي على ورقة اسمه وأن مهنته هي المحاماة وكتب اسم الدائرة التي يعمل فيها، ثم وباختصار كتب له:
. فقدتُ النطق أثناء تعذيبي بالكهرباء!

وضعه الطبيب على السرير، ونادى على الفرّاش وطلب مني مغادرة الغرفة. بعد قليل سمعت صراخاً وأصوات ضرب ثم هدأ كل شيء.
عندما دخلت وجدت أخي يعتذر وقد عاد إليه صوته:
. آسف يا دكتور. فعند رؤيتي الكهرباء تخيلت أنك تريد تعذيبي مثلهم!
في ذلك اليوم تحدث لي أخي عن كل شيء.. عن أهوال التعذيب وعن كراهيتهم للإنسان، وقال لي:
. عندما تتحسن صحتي سأختفي تماماً.. لن أنتظر مجيئهم لي مرة أخرى!
منذ ذلك اليوم لم أر أخي لكنني كنت مطمئنة أنه لن يقع في أيديهم.



يمتد الصمت بيننا في اللقاء التالي. وعندما تتكلم أعرف أن الصمت امتد هناك أيضاً بطريقة تبعث على الجنون، صمت مسكون بكل الاحتمالات المخيفة.
إنها العاشرة والنصف ليلاً، سيأتون بعد قليل وسيأخذون السيدة ليلى، لكنها اليوم ستكون عاجزة تماماً عن السير بقدميها المتورمتين، وبهذا الإبهام المطعون بالإظفر الكبير.
. كنت أفكر بالمسافة بين سجني وبين غرفة التحقيق، في النهار كنت أسترجع في ذاكرتي أشكال التعذيب التي سمعت عنها.. لقد عرفت أنهم اليوم سيجربون طريقة جديدة معي، ففي الأيام السابقة استخدموا طرقاً تختلف عن بعضها، كل يوم طريقة. لكنني اليوم أجهل ما الذي سيحصل معي وأية طريقة تعذيب سيلجأون إليها؟
شيء مدمر أن تقضي يومك وأنت تفكر بشكل التعذيب الذي سيأتيك في الليل! لا مجال هناك للأمنيات. أقصد لا مجال

لتوقع أهون الشرين. حتى في الإعدام تمني النفس وأنت في الزنزانة بالحصول على أهون طريقة للموت!
تصمت ويرتسم شبح ابتسامة على وجهها، وتقول:
. في زنزانة الإعدام ببغداد، كان الأمر أهون، كانت هناك أختان صدر عليهما الحكم بالإعدام فكانتا تتحدثان أمامنا، بسخرية وضحك، عن عملية الشنق وتفاصيلها!
كانت الصغيرة تقول لأختها الكبيرة.
. هل صحيح أن اللسان يمتد طويلاً بعد الشنق؟!
فترد الكبيرة:
. كل الجسم يصير أطول لكن هذه المشكلة غير مهمة المهم أن تدعو البنات لنا بجلاد رحيم!
تضحك الصغيرة وتقول:
. شلون يعني رحيم؟ يشنقنا بحبل من حرير!؟
فتضحك الكبيرة ونضحك نحن ثم تضيف:
. لا... أقصد أن يكون من الذين يعرفون شغلهم زين! الغشيم يعذب الواحدة منا وقتاً أطول أما الذي يعرف شغله فيكون الموت على يده سريعاً جداً!
تطلق الضحكة تلو الضحكة ونبدو نحن وكأننا نضحك. لكن فجأة يقع القلب بين الضلوع وينفجر البكاء!
بكاء كنا نتمنى معه لو أن الموت يأتي الآن ويأخذ كل واحدة منا بعيداً عن هذا العذاب الذي لا ينتهي! لكن سعاد وأختها كانتا تهوّنان علينا. نحن الغارقات في الدموع والأنين.
وكانت تقطع بكاءنا بالسؤال:
. شنو اليوم؟
فترد إحدانا بتعب:
. السبت.
فتقول بحزم:

. ليكن هذا آخر بكاء حتى يوم الثلاثاء، وبعدها ابكوا علينا (تضحك وتضيف) وابكوا على حالكم قدر ما تريدون هل هذا مفهوم؟! نكفكف الدمع ونتظاهر بالاستجابة للنكات التي تلقيها الأخت الصغرى سهام ونتظاهر بالضحك. تلتفت السيدة ليلى:

. تصور حتى في الموت هناك مجال للاختيار ولتمنية النفس بما هو أهون! أما أنا وفي تلك الليلة فقد كنت عاجزة عن اختيار أو تمنّي شكل التعذيب!

كان هذا محطماً للأعصاب، فكنت أتوتر وأقفز من مكاني لكن ألم القدمين كان يقعدني في مكاني بسرعة وأتمنى للحظات أن لا تكون الفلقة هي عذاب هذه الليلة! تصمت.. فلا أستطيع الكلام، لا أستطيع توجيه سؤال. وفجأة تطلق ضحكة صغيرة وتقول:

. عندما كنت في المدرسة، كنت صغيرة جداً، هل تصدق أنني كنت في يوم ما صغيرة؟ أنا نفسي لا أصدق، وعندما أتذكر أيام المدرسة الابتدائية يبدو لي الأمر كحلم.

لقد كنت أقف هناك في الساحة وسط البرد والمديرة ترفع العصا وتضرب على ذراعي وهي تأمرني:

. مدّي إيدك!

في البرد يبدو الضرب قارساً والفتيات الصغيرات يتضاحكن وكان الألم يدفع للتحدي والاستسلام للبكاء في وقت واحد. لقد نسيت منديلي!

نظرت حولي بحثاً عن منديل، لكن السيدة ليلى ضحكت وقالت:

. لا.. لقد نسيت منديلي آنذاك، ومن أجله ضربتني المديرة في يوم التفتيش!

كان يوم رفع العلم وكان التفتيش يسبق رفع العلم. ضربتني المديرة. تألمت، أعادت

الضرب مرة مرتين ثلاثاً أربعاً.. ثم نظرت إلى عيني فوجدت أنني لن أبكي. رفعت العصا مرة أخرى وتوقفت ودون أن تنظر إلي قالت:

ـ لا يكفي أن تكوني شاطرة في دروسك!
ثم سارت كأنها واستني بتلك الكلمات. لقد تذكرت في الأقل أنني كنت مميزة في درجاتي. هل ابتعدنا عن الموضوع؟

لم أدر ما أقول. فهذا عالم مجهول وتداعياته غريبة. لقد تذكرت ضحكات في زنزانة الإعدام وتذكرت ضربات المديرة بحنين إلى تلك الأيام، وعليها أن تكمل الآن تفاصيل ليلة الرعب الرابعة..

قبل العاشرة والنصف انشغلت بكل العذابات التي يمكن أن تخطر في البال لكن بعد ذلك صرت مشغولة بشيء آخر. قلت لنفسي:

ـ سيأتون لأخذي لكنني لن أستطيع السير على قدمي فهل سيجرونني من شعري كما فعلوا في المرة السابقة؟ إن هذا يبدو مؤلماً أكثر من أي شيء آخر!
قضيت تلك الدقائق الرهيبة وأنا أقارن بين ألم السير على القدمين وبين ألم جري على الأرض من شعري. وشعرت وأنا أجرب شدّ شعري أو الوقوف على قدمي في الزنزانة أنني تحولت إلى حيوان! إلى شيء آخر...
لم أشعر أنني إنسانة. كان هذا خطيراً! وقررت أن أصرخ في وجوههم عندما يأتون إلي. سأحاول أن أفلت من أيديهم عندما يأتون، وسأتصنّع الهرب فلعل أحدهم يطلق النار علّي ويخلصني من هذه المهانة!

في الحادية عشرة لم يأتوا، في الثانية عشرة لم يأتوا، كان هذا مرعباً أكثر.. فآلام الخيال، وقد ذقت الألم الحقيقي وانتظار التعذيب المجهول، وقد تعرضت لكل شيء،

تبدو مخيفة ومدمرة.
إن أصعب ما يواجهه السجين المعذب هو هذا التأرجح بين الأمل واليأس، بين الخوف والشجاعة، بين التوتر والاسترخاء، ودون أن أدري نمت، نمت كما لو أنه أغمي عليّ!
كان نوماً عميقاً، تأكدت من هذا في الصباح عندما استيقظت ووجدت أنني لم أتحرك في النوم.

شعرت بالخجل والمهانة من المشاعر التي راودتني في الليلة الماضية.
لقد تمنيت أن يأتوا كي يخلصوني من أهوال الانتظار.
فيما بعد قال لي المحقق:
. لقد انشغلنا عنك يوم أمس. كان شغلنا كثيراً!
تمنيت في داخلي لو أن شغله الكثير استمر. لكنني شعرت بالعار عندما تذكرت فجأة أنه انشغل بسواي عني، وأن امرأة أو رجلاً وربما طفلاً كان هو الذي خلصني من التعذيب!

تلك الليلة بدأوا الأسئلة والاتهامات فأنكرتها كلها. ضربني عدة مرات لكن الضربات لم تكن مؤلمة جسدياً كان هدفها الإهانة وتحطيم معنوياتي، ثم طلب مني أن أوقع على المحضر. انحنيت على الطاولة وقبل أن أوقع حاولت أن أقرأ ما كتب في المحضر لكنه ضربني على رأسي من الخلف بيده قائلاً:
. حقيرة! ألا تثقين بنا؟!
لم أدر ما أفعل. تمنيت لو أنني أكلت حجارة الجدران للتنفيس عن غضبي! لقد أشعرتني تلك الضربة المهينة بالذل والعار. لكن، وكما هو الأمر دائماً في مثل هذه الأماكن. خف إحساسي بهذه الإهانة عندما استمر في كلامه البذيء. وتهديداته القذرة. فوقعت وأنا أضع الموت نصب عيني.

لم يكن ثمة من خلاص إلا الموت!

اقتادوني بعد ذلك إلى غرفة العقيد. ووقف المحقق مثل الكلب بجانب العقيد ووضع أمامه الملف أمامه وهو يقول:
- سيدي... هذا هو المحضر... إذا أردت فسنأخذ اعترافاتها في فترة قصيرة!
لم يرد عليه العقيد، بل نظر في الملف ثم رفع عينيه إليّ وقال بلهجة محايدة لا روح فيها:
- يا بنتي الاعتراف أحسن لك!
قلت:
- أنا لم أرتكب شيئاً لقد عذبوني وضربوني و...
- يطبج مرض!
قالها فجأة وبحدة كي لا أتوسم فيه خيراً. ثم عاد إلى الملف ووقع على إحدى الأوراق، ورماها إلى المحقق دون أن ينظر إليه وقال لي بتهديد:
- ستشتاقين للأيام التي قضيتيها هنا. هذا وعد مني!

شعرت برجفة عند سماعي التهديد. عرفت أن لا فائدة من الحديث معه. وفيما كان المحقق يحمل الملف أحسست بفرح داخلي غامر فأنا سأنام الليلة دون تعذيب! وقد كان لي ذلك لولا كلمات المحقق البذيء وتهديداته وتكراره لكلام سيده:
- ستشتاقين للأيام التي قضيتيها هنا. هذا وعد مني أيضاً!
تلك الليلة حاولت أن أتخيل ما ينتظرني. عجزت، ومخيلتي لا يمكن أن تتسع لمزيد من صور الرعب. لم أكن أتخيل التعذيب أكثر من الذي رأيته وتعرضت له. فهل كنت واهمة؟

في الطريـق إلى سـجن (آلوكـه) كانـت مشاعر السيدة ليلى هي الاضطراب بعينه، فهـا هـي السـماء وهـا هـي الأرض، والجبـال جميلـة كمـا لم تكـن مـن قبـل.

لعلهـا فكـرت أنهـا تقتـرب مـن السـماء كلمـا صعـدت السـيارة في الطريـق الجبلـي. ثمـة آلام هنـا وهنـاك، آلام تتزايـد كلمـا اهتـزت السـيارة. لكـن مشـاهد الأعشـاب البريـة علـى جانبي الطريق كانت توحي لها بقوة الحياة. إن مشـاهدة النهـار بعـد كل ذلـك الظـلام هـو

أفضل ما يحلم به إنسان. ودائماً كنت ألح عليها بالسؤال:
. في المرات التي رأيت فيها النهار، أثناء تنقلك بين السجون، ألم تخطر ببالك فكرة الحرية؟
تجيب بثقة:
. لا!
. لماذا؟
. يجب أن يكون المرء في وضعي ووضع السجينات الأخريات حتى يعرف أن فكرة الحلم بالحرية وفي هذه اللحظات بالذات شيء مدمر!
وتفصل السيدة ليلى هذه الفكرة الغريبة:
. في كل السجون والمواقف يكون حلم الجميع واحداً وهو ألا يكون الإعدام نهايته!
تنظر إلى بعيد وتقول:
. مرة واحدة راودتني فكرة الحلم بالحرية، لكنني لم أنتبه على نفسي إلا وأنا أصل إلى السجن الآخر!
لقد حرمت من مشاهدة الطريق بسبب استغراقي في حلم اليقظة بالحرية. إنها خسارة كبيرة لمن قضت وقتاً طويلاً في الظلام.. ثم إن السجينة تسير دائماً باتجاه المجهول.. ملفّي وأوراق اتهامي معهم وأنا لا أعرف شيئاً عنها!
قالوا لي سنرسلك إلى بغداد حيث يتولون التحقيق معك، لكنهم أخذوني إلى سجن (آلوكه) ومن بعدها إلى سجن الغزلاني في الموصل قبل أن يأخذوني إلى الجحيم.. إلى مديرية أمن بغداد!

صعدت السيارة كثيراً قبل أن تصل إلى القلعة القديمة التي صارت تعرف رسمياً باسم سجن «آلوكه». لم تكن فكرة السجن على القمة سيئة فثمة الكثير من الهواء النقي والنور الحقيقي.. وهما من أعز الأشياء على السجين أو السجينة، خصوصاً أولئك القادمين من الأقبية المظلمة والعزلة

القاتلة.
تمت إجراءات تسليم السيدة ليلى بهدوء: توقيع هنا وتوقيع هناك، مفتاح صغير دار في القيود المحيطة بيديها ثم دفعة خفيفة على الظهر وتقدم باتجاه الباب الكبير.
فيما كان المفتاح الضخم يدور في باب القلعة - السجن، تلفتت السيدة ليلى إلى الأرض التي بدت بعيدة عن هذا المكان المرتفع.. نظرت إلى الباب العملاق ثم أنزلت رأسها قبل أن تصل إلى نهايته. لم تفعل هي ذلك بل الآلام هي التي أرغمتها!

لم يفتح الباب الكبير، بل إن باباً أصغر منه، فيه، هو الذي فتح. ثم دفعت باتجاه الممر إلى غرفة وشرطة وبضعة أسئلة رسمية ثم اقتياد إلى نهاية الممر حيث فتح باب آخر فصارت في باحة السجن.
دائماً كانت السيدة ليلى تنتقل من باب لآخر. من مجهولٍ لآخر. فتح الباب قليلاً فنزّت السيدة.. لمْ يكن ثمة ما يخيف فالطفلة هي التي دخلت لكن ملامح القلق ارتسمت على وجهها. سألتها وأنا أدفع الطفلة خارجاً:
- لماذا هذا الخوف المفاجئ من قيام طفلتي بفتح الباب؟
غطت وجهها بيديها واستجمعت تجربتها مع الأبواب:
- منذ إلقاء القبض عليّ وأنا أشعر برعب من فتح الأبواب أو إغلاقها. وعندما أكون في الزنزانة ويفتح الباب أتوقع أسوأ الأشياء. إنهم يأخذوني عادة إلى باب آخر يفتح، فأجد أنني قد صرت في غرفة التعذيب. وكنت أجفل عندما أنظر إلى الوراء، إلى الباب الجديد الذي أغلق عليّ.
في تجربتي كانت الأبواب أحد أشكال التعذيب. إنك لا تعرف ما ينتظرك عندما يفتح أحدهم الباب، لست في بيتك ولا عند أصدقائك. أنت في السجن عندهم.. ولكل باب

مفتاح ولكل مفتاح شرطي ولكل شرطي مهمة ولكل مهمة آثار في جسدي وروحي!

تصمت فيصمت كل شيء.. وأتساءل في داخلي عن المعاني الرمزية للأبواب: السحر الممنوعات ثم... الحلم بالحرية! لكن لا شيء من هذا عند السيدة ليلى فالأبواب كانت دائماً تؤدي إلى الجحيم!
يمكنك أن تصف هذه الحالة، أو تختصرها بالقول، إنها ندوب نفسية أو روحية بيد أن هذا لن يرضيها، فلقد كانت هناك ورأت وتألمت، واحتفظت في ذاكرتها بمعنى وحيد لصرير المفتاح في الباب!

بدا لها السجن مكاناً أليفاً، فثمة العديد من النساء والأطفال وثمة ساحة غير قليلة للحركة، كان النهار وكان الأطفال يلعبون هناك. أما النساء فكن في مجموعات منشغلات بشغل البيوت. غسيل وتنظيف وأحاديث لا تشغل عن العمل.
عند دخولها توقف كل شيء لثوان. الأطفال عن لعبهم والنساء عن الحديث والعمل واتجهوا بالنظرات إليها ثم عادوا بسرعة إلى ما هم فيه.
قال لها الشرطي وهو يفتح أحد أبواب غرفة القلعة:
. بإمكانك أن تنامي هنا أو تختاري لك مكاناً آخر.
بقيت واقفة في مكانها، إذ فاجأتها رائحة الرطوبة وشعرت بثقل الظلام القليل الكامن في الغرفة. أرضية الغرفة أشعرتها بالبرد.. ترددت قليلاً بين الدخول والبقاء بعيداً، تلفتت حولها بحثاً عن الشرطي أو سواه.. كان قد غادر المكان. نظرت إلى السجينات ثم إلى السماء واستندت بيدها إلى الجدار.
عندها اقتربت منها امرأة كبيرة في السن، وأخذت تتحدث معها.

لم تفهم شيئاً، فقد كانت المرأة كردية لكنها رغم ذلك شعرت بالألفة.. وشعرت أيضاً كم كانت مريضة ومرهقة ومدمرة عندما استسلمت ليد المرأة وهي تقودها عبر النساء والأطفال إلى غرفتها البعيدة.

شعرت السيدة ليلى أن بإمكانها الآن الاستسلام للإغماء لو أرادت، فنظرات النسوة والأطفال كانت تنطق بالتعاطف والتأسي لحالها. لكنها واصلت السير كالمسحورة. ولم تكن ترى في طريقها سوى تلك العيون: عيون أطفال مندهشة وعيون نسوة يبدو عليها الذبول والرغبة في قول كل شيء.

وصلت.. عرفت هذا عندما تركت السيدة الكردية يدها وأخذت تتحرك لتعد الفراش البسيط. كانت تتحدث باستمرار ودون توقف. تلك الكلمات الغريبة بدت لها مفهومة بروحها. إنها تقول لها:

- اطمئني يا صغيرتي!

حتى عندما كانت السيدة تتحدث بغضب كان يبدو لها أنها تشتمهم. أخذت السيدة الكردية تنظر لجسمها وبدأت تمسك بيديها وساقيها وتوقفت عند أظفر إبهامها المكسور والغائر في اللحم. كانت ترى الكدمات والمناطق الزرقاء على جسد السيدة ليلى فتبدو كمن تخمن درجة خطورتها أو مستوى إيلامها. فكانت تهون عند هذه الكدمة وتتأمل طويلاً عند ذاك الورم أو الجرح ثم ترفع رأسها إلى فوق وتقول كلاماً مبهماً.

بدت مثل القديسة التي من شأن لمستها شفاء الآلام. إنها المرة الأولى التي يرى فيها أحد جراحي.

كانت تلك أكبر مواساة أحلم بها: أم تنظر إلي جراحي فتتألم وتلعن. ثم أنها مسحت دمعة بسرعة وعادت للكلام المبهم. كان ذلك أجمل الكلام، وفي داخلي شعرت بامتنان خفي لأنني لم أفهم شيئاً

من كلامها، فالكلمات أخذت شكل قراءة تعويذة شافية وكان لي مطلق الحق في أن أتصور ما أشاء وأفسره كما أريد.
هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالأمان. كانوا يمسكون جسدي فأشعر بالألم وكانوا يتحدثون معي، فأشعر بالإهانة لم يكن جسدي بالنسبة لهم إلا ميداناً للتعذيب، ولم تكن روحي إلا شيئاً واجب التحطيم. أما الآن، فهذه هي المرة الأولى التي يقترب فيها إنسان مني ويمسك بجراحي لمداواتها، ويمعن النظر فيّ لمنحي الشعور بالأمان.
أشعلت السيدة الكردية ناراً. ووضعت قدراً ملأته بالماء على النار، وهيأت مكاناً في الغرفة للطشت وظلت تتحدث.
وفي ذلك الأمان تمنت لو تأتي هذه الأم الكردية وتأخذ رأسها وتضعه في حضنها، وتقول لها:
- ابكي... ثم نامي فأنا أمك!
لم يحصل هذا إلا بعد فترة طويلة، وفي سجن الموصل. أما الآن فإن الرغبة في البكاء والنوم بل الانهيار حارقة عند السيدة ليلى. لكن السيدة الكردية كانت تتحدث وتتحرك وشعرت أن من الخطأ، وقلة الوفاء أن تنام أو تغمض عينيها عن فيض الحنان الإنساني هذا.
أغلقت الباب وسدّت منافذ الهواء بالخرق ووضعت لها الماء فاغتسلت.
عادت الأم الكردية فجففت لها شعرها.
أجل... كنت محتاجة للمسة على الرأس من يد أمي. هذا ما كنت أريده.
أعطتني بعض الملابس، وعهدت بملابسي لامرأة أخرى كي تغسلها، ثم سمحت للأطفال بالدخول. تحدث معي طفل في الحادية عشرة من عمره باللغة الكردية. وعندما بدا له أنني لا أفهم حديثه ضحك بصوت عال وخاطب أمه بالكردية فردت عليه بعناد.

قال لي باللغة العربية:
. قلت لها أنك لم تفهمي كلامها فقالت لا ... إنها تفهم. هل فهمت؟
قلت له:
. لا أعرف اللغة الكردية ولكنها كانت تتحدث بأشياء لطيفة أليس كذلك؟ ترجم ما قلت إلى أمه ضاحكاً فأشارت بيديها لهم أن يخرجوا لكنني طلبت منه البقاء للترجمة!
ربما كان ذلك اليوم. بل تلك اللحظات، هي الأجمل في حياتي. جاء دور الشاي وقطعة الخبز والبيضة المسلوقة التي أخرجتها الأم الكردية من بين أغراض كثيرة، وكان أمام السيدة ليلى الكثير من الوقت كي تتحدث عما حصل معها، وكي تسمع قصة هذا العدد الكبير من النساء والأطفال السجناء في هذه القمة.

كان هذا السجن للحجز والتسفير في نفس الوقت. حجز العوائل الكردية لحين القاء القبض على ابنائها أو قيامهم بتسليم انفسهم. وحجز العوائل العربية بانتظار تسفيرها إلى سجون أخرى لاستكمال التحقيق.
وبفرح عرفت اسم الأم الكردية. كان اسمها (جوري) وبالنسبة لي كانت جوري فعلاً.
تأملت كثيراً في اسمها عندما أخبرني ابنها بذلك، تذكرت ورد الجوري وأيام الطفولة وأيام الربيع القصيرة. وعرفت قصتها. قالت لي:
. نحن هنا من أجل أولادنا... إحنا «بيشمركة» وهذا وضع طبيعي إلنا أما أنتم.. فمظلومين!

شرحت لها أن النظام لا يفرق في السجون بين العرب والأكراد، فردت:
. أعرف أعرف.. ولكن هذي الحياة صعبة

عليكم!
كان لها ابن يدرس الطب في الاتحاد السوفيتي، وعندما تخرج دخل العراق متسللاً، وفي ركن من البيت خبأ شهادته، وقال لأخته:
- ستأخذيني غداً إلى الأنصار، سألتحق بهم وبأخي. قالت لي جوري:
لم أستطع منعه. بل إنني لم أقل له أن لا يذهب فلا فائدة من ذلك، والحكومة في كل يوم تقتلنا. هم رجال وبإمكانهم حمل السلاح والصعود إلى الجبل للدفاع عن أنفسهم.
ذهب مع أخته، وبعد أسابيع جاء رجال الأمن وطالبوا بهما. قالوا للأخت الصغيرة:
- اذهبي وقولي لهما: إن لم يعودا معك خلال ثلاثة ايام فسنعتقل أهلك جميعاً!
أوصيناها أن تبقى مع أخويها وأن لا تعود فقد صارت كبيرة!
أوضحت لي جوري ما أعرفه:
- حتى لو عادوا معها فإنهم سيُعدمون أو يحولونهم إلى جواسيس عندهم.
بعد ثلاثة أيام جاء الأمن. وطلبنا إمهالنا وقتاً آخر، فالطريق بعيد والبنت صغيرة ولا تعرف أين تسأل عنهم. وبعد أسبوع جاءوا وضربونا، ثم اقتادونا جميعاً إلى السجن، أنا أيضاً ضربوني، وبعد فترة طويلة جاءوا بنا إلى هنا.
- كم مضى عليهم هناك في سجن آلوكه؟
- تسعة شهور ولم يكونوا ينتظرون شيئاً، فهم يعرفون أن سراحهم لن يطلق ما لم يقتل الأبناء أو يسلموا أنفسهم! ولهذا كانوا يعتزون بسجنهم رغم غضبهم وحقدهم على النظام. إن بقاءهم في السجن يعني أن أبناءهم مازالوا رجالاً... أحياء!
عشرات العوائل الكردية كانت في هذا السجن. وكانت تتصرف وكأن السجن بيتها.
قال لي أحد الأطفال مطمئناً:

. لا تخافين خاله.. أنت مو إعدام!
شعرت بامتنان لمواساة الطفل لي، فهذا الكلام هو الأمل الذي يراود الجميع هنا، وتعودت أن أقولها لكثيرات يأكلهن القلق والخوف.
كانت في السجن عائلة من الناصرية، وعائلة من كربلاء وأخرى من البصرة، وكان لديهم الكثير من الأطفال الرضع والصغار.
ذات يوم مرت من فوقنا طائرة، كانت بعيدة فنظرت إليها طويلاً، وتأملت:
. هل يعرف ركاب الطائرة بهذه الجريمة؟
أعرف أن السؤال كان باهتاً وعديم المعنى، لكنني بقيت أطرحه على نفسي وأتمنى لو أنهم رأونا، ولو أنهم عرفوا أن مجموعة كبيرة من النساء والأطفال اقتلعوا من بيوتهم، وألقي بهم هنا لا لجريمة ارتكبوها أو مخالفة قاموا بها، بل لأن أبناءهم دافعوا عن حياتهم وكرامتهم، أو لأن الأبناء هربوا من الظلم..لا أحد هنا يعرف مصيره، ولا أحد هناك يعرف بمصيرنا وبما ينتظرنا. أية وحشية وأية مأساة؟ تنظر إلي السيدة ليلى وتسأل:
. هل تعتقد أن قراءك يهتمون حقاً بهذه المشاعر؟ أتراهم سيحسدونني لأني عشت أياماً مليئة بالمحبة والألفة مع هذه العوائل المسبية؟.. أنا أيضاً حسدت نفسي تلك الأيام، إذ لا تعذيب ولا إهانات سوى إهانة الحبس. لكنني لم أحدثك عن الرعب والخوف وحبل المشنقة الذي يتراءى للأطفال وللنساء في النوم.
نستيقظ في الليل، دائماً، على بكاء طفل أو صرخة امرأة كالمذبوحة.. حشرجة أو أنين، وعندما يبدأ البكاء ويأتينا الصوت من الغرف والزنازين الأخرى، نعرف أن من تعرضت لكابوس حبل المشنقة أو آلام التعذيب قد وجدت من يهدئ روعها ويشاركها البكاء، ويقول لها أنها مازالت حية وأن ما رأته

كان كابوساً!
تتحدث السيدة ليلى بمرارة عن محنة النساء هناك، فأتساءل في داخلي:
. ما الفرق بين الكابوس وحياة السجن؟ أيهما الكابوس وأيهما الحقيقة؟ ولو أتيح لهؤلاء النسوة ولأولئك الأطفال أن يختاروا بين الحياة التي هم فيها وبين الكوابيس التي تزورهم في الليل، فهل سيكون خيارهم سهلاً؟
أنت لو كنت هناك ماذا ستختار؟
الموت؟ إن الموت يبدو حلماً. لكن المشنقة كابوس، والتعذيب كابوس، والسجن كابوس!
في الموت يكون المرء بين أهله، ويشعر بحزنهم وحرارة دمعهم لكن ماذا عن السجينات.؟ ماذا عن السيدة ليلى؟
إنهم كلهم هناك. العائلة، والأبناء، أما الرجال ففي الجبل أو في السجون وبعضهم وقف على خشبة الإعدام، لكن سراح العائلة لم يطلق!
تعرفت جيداً على العوائل الجنوبية، كل عائلة لها قصة دامية. دعني أحدثك عن قصصهم فأنا، في هذا السجن، كنت في هدنة مع التعذيب!

كانت هناك امرأة من مدينة الناصرية ومعها طفلتها ذات السنوات الخمس أخذوا زوجها.... إلى أين؟ لا أنا ولا هي تدري.
هناك أيضاً عائلة من كربلاء: أم وثلاث بنات، الزوج وأخوته أخذوهم أيضاً، عائلة أخرى من البصرة، أم وطفلتين.
فيما بعد في سجن الرشاد ببغداد تم الحكم عليهن جميعاً بالسجن عشر سنوات!.
لكن المشكلة ليست هنا، فالأزواج والأخوة، أعدموا، كانوا من الأحزاب الإسلامية. أما السجن فبسبب درجة القرابة.
تصور أنني عرفت بأنهن أميات. لا يقرأن ولا يكتبن!

في بعض الليالي، وعندما شددت الكوابيس خناقها عليّ نمت مع هذه العائلات رغم ضيق المكان، في الحقيقة هم دعوني للنوم معهم، قالت الأم الكربلائية:

. تعالي معنا إننا نسمع صوتك في الليل ولا نستطيع مساعدتك، فالأبواب مغلقة في الليل! نمت معهم، وفي الكابوس كانت توقظني وتقرأ لي آيات قرآنية وأدعية. هكذا كانت تفعل مع أطفالها وهكذا كنت أفعل أنا. لقد كنت اقرأ لغيري بعض الآيات القرآنية والأدعية.

كانت الكدمات الزرقاء تغطي أجساد النساء وكنت أعرف من أين أتت؟ فلقد مررت بالتجربة.

لم أسأل ولم يسألوني كثيراً. إن هذه قاعدة متعارف عليها في السجن، لا تسأل ولا تفشي أسرارك، فمن يدري ما يفعله المرء تحت التعذيب؟!

مرة أردت أن أبوح بالألم وأن أتحدث عن الأمل... قالت لي السيدة:

. لا تتحدثي أرجوك... فالكلام أمانة وقد لا يستطيع الكل حملها!

لكننا مع ذلك كنا نتحدث ونقول بعض ما يجب أن يقال بطريقة ما. إن الصمت مخيف مثل الكلام، في الحقيقة كل شيء مخيف هناك!

قالتها وكأنها توجز كل شيء. سألتها:

. ماذا يفعل الأطفال في الأيام والليالي الطويلة؟ كيف يفهمون الأمر؟ ما هي الألعاب التي يمارسونها هناك؟

. يا عيني على الأطفال... الصغار منهم لا يعرفون شيئاً، كانوا يبكون كل يوم وهم يطالبون بالحليب والحلويات. أما الأكبر منهم قليلاً فالسجن هو لعبتهم الوحيدة: في الصباح وقبل أن تفتح أبواب الزنازين (في العاشرة صباحاً) يقفون قرب الباب ويتجمعون هناك وعندما يسمعون «خرخشة» المفتاح في الباب، يعرفون أنه

سيطلق سراحهم كي يلعبوا في الساحة..
البنات يتجمعن مثلنا نحن الكبار ويبدأن اللعب:
يلبسن العباءات ويتخذن وضع النساء الكبيرات ثم يبدأن لعبة الهمس:
. اسكتي لا يسمعنا السجان!
. لا تتكلمي هكذا. فهذا الكلام عقوبته الشنق!
. ألم تسمعي بما حصل لفضيلة؟ لقد أعدموا زوجها وهي لا تدري!
كانت تلك الألعاب والأحاديث هي صدى أحاديث الكبار، أما الأولاد فقد كانوا يلعبون لعبة أخرى:
. طِق طاق!
إنهم يستخدمون رشاشات وهمية في معارك وهمية، هي صدى للمعارك الحقيقية التي يخوضها الأكراد والعرب المسلحون ضد السلطة!
كان الأولاد يجمعون أحياناً بعض الخرق ويخلقون منها كرة يلعبون بها.
تصمت السيدة ليلى وشبح ابتسامة على وجهها، وتنصرف لتذكر الأطفال الذين كبروا هناك في السجن. تحدثت لها عن سيدة ولدت في السجن طفلها وقد بلغ الخامسة من العمر ولم ير أي حيوان سوى القطة، وذات يوم شاهد بصدفة غريبة حماراً في السجن، فخاف منه وركض إلى أمه وأخبرها بأن ما أخافه هو القط الكبير. لقد ظن الحمار قطاً!

قالت السيدة ليلى:
. في سجن الموصل كان هناك طفل جميل اسمه وردان، كان صديق الجميع يتحرك في كل مكان فيشيع البهجة والأمل (على قدر ما يسمح به السجن من تسمية للبهجة والأمل) لكنه كان يصعق ويصفر وجهه ويجلس في مكانه مرعوباً عندما يسمع كلمة.

. مَسْطَر!
والمسطر هو تعداد السجناء والمناداة عليهم بأسمائهم.
كان يترك كل شيء ويتحول إلى رقم واسم في المسطر. وعندما يمعن في اللعب كان يكفي أي طفل أو أية سجينة قول هذه الكلمة كي يتوقف ويتجمد في مكانه! غادرت سجن الموصل ووردان لا يريد التفريق بين كلمة مسطر الحقيقي وتلك التي تقال للعب!
وكما قالت لي أمه فقد تعرض للكثير من الأذى والخوف على يد رجال الأمن يوم كان يلعب ولا يعرف حقيقة المسطر!
. وأنتم.. ماذا كنتم تفعلون في الساعات التي لا تنتهي؟
. نتحدث... أحياناً نقرأ الفنجان، نغسل الملابس، ننظف الغرف والساحة وننظر إلى فوق.. إلى السماء علَّ طيراً ما يمر فيرى ويحدّث!



دائماً كان السجين والبائس، سجين البيت أو الغربة أو المحنة أو سجين الحكومة ينظر للطير اللاهي ويحمله ما يشاء من الشوق والألم.
الأغنيات التي تسكن البال هي التي تدفع الفكرة كي تهيمن على مثل هذه اللحظات، والتراث العراقي مليء بهذه الأغنيات والسيدة ليلى مثل سواها، تنتظر من الطير والأغنية أن تقولا، عوضاً عنها ما لا يقال! سوى أن السجينات هنا أو غالبيتهن، لا يعرفن عنواناً يذهب إليه الطير بالأغنية والوصية!

إحدى السيدات، تقول لي السيدة ليلى، لم يبقَ لها سوى ابنتها المتزوجة في كربلاء كانت وحيدة في بغداد، وقد ذهبت ذات يوم لزيارة مراقد الأئمة في كربلاء، فدقتْ الباب على ابنتها، ووجدت بدلاً من الابنة

فوهات البنادق!
كانوا هناك في البيت في انتظار كل قادم وها هي في سجن آلوكه لا تعرف شيئاً عن ابنتها، ولا لماذا هي هنا! قيل لها سنأخذك إلى ابنتك، لكنها كانت في الحقيقة تنتقل من سجن إلى آخر دون جدوى!
نساء كثيرات كن في السجن لهذا السبب. يذهبن لزيارة الجيران فيلقى القبض عليهن. كانت بيوت المتهمين تتحول إلى كمائن للأبرياء. فما أن يعرفوا عنوان المتهم أو المتهمة حتى يقتحموا البيت ويجلسوا هناك بانتظار القادم. وكل قادم متهم شاء المنطق أم أبى!
إنك تجد في السجون عربيات وكرديات. شيوعيات وبعثيات، نساء كثيرات من الاحزاب الاسلامية، والأكثر منهن النساء اللواتي لا يعرفن شيئاً عن السياسة!
لقد تم اعتقالهن وتعذيبهن، من باب الاحتراز، بل إنهن قُدّمن للمحاكم من باب الاحتراز أيضاً!
أنا أيضاً تقول السيدة ليلى، حكم علي بالسجن لعشرين سنة من باب الاحتراز، وإلا كيف تصف النص الرسمي للتهمة: «الاشتباه بوجودها في تنظيم»؟!
إن هذه صورة مصغرة لما يحصل في سجون الرجال!

مرت الأيام في سجن آلوكه مثيرة للارتباك في كل لحظة. الليالي مسكونة بالكوابيس والنهارات مسكونة بالتهديد. تهديد النقل إلى مكان آخر. الكثير من العائلات مرت من هنا، بعض العائلات لا تبيت هنا أكثر من ليلة أو ليلتين وبعضهما يبقى شهوراً مديدة ولربما سنوات!

في هذا السجن وفي مختلف السجون التي مررت بها يكون التعاون بين السجينات في أفضل حالاته دون أي تأثير للأفكار

السياسية والانتماءات الحزبية، إن نساء الحركة الدينية يتعاون مع الشيوعيات، فتهمة الجميع واحدة والعقوبة واحدة. إنهم يعلموننا في السجن، من جديد، ما نعرفه: العدو واحد. لكن ما الفائدة؟ فالكل هنا ضحايا ولا مجال لتعاون أكثر من المواساة وتضميد الجراح وإيصال وصية من أخذوها للإعدام!

بقيت في سجن آلوكة عدة أسابيع وقبل أن أغادر أعطتني النساء بعض النقود، خمسة دنانير أو أقل، جمعوها لي، فنقودي كانت عند رجال الأمن ووصل استلامها كان عندهم أيضا!

لا يشعر المرء بالحنين إلى السجن، لكنني دائمة التفكير بهؤلاء الضحايا، بهذه العوائل التي لا يعرف بعضها لماذا أدخل إلى السجن، ومتى يخرج منه؟ ماذا حل بالأطفال الذين كبروا هناك؟ وهل هم قادرون على تحمل سجن الرجال، حيث يقتاد كل طفل يتجاوز الخامسة عشرة إليه؟

إنها أسئلة تبدو عديمة المعنى لكنها تراودني دائما. فأنا أعرف أن كل يوم يمضي يكون هناك امرأة أو رجل وطفل في التعذيب. في السجن، وعلى خشبة الإعدام، وسوى هذا هناك الخوف الذي لا ينتهي من رعب المجهول.. الخوف من التهديد بما هو أكثر قسوة تدميرا!



في تلك البرية.. على ذلك الجبل.. بذلك القرب من السماء، خطت السيدة ليلى مع بعض النساء والأطفال بضع خطوات من بوابة السجن إلى سيارة الشرطة.

باستثناء سجن آلوكة وسيارة الشرطة، كان المكان وكل شيء في غاية الطهر والبراءة:

أرض لم تطأها قدم وسماء صافية وهواء نقي، حتى حيوانات البرية وعلى وحشيتها، بدت للحظات في عين السيدة ليلى في غاية البراءة والألفة:

. تلك الحيوانات المتوحشة لم تكن لتقتل مخلوقا إلا عندما تكون جائعة، أو للدفاع عن نفسها.. شعرت، والحديث للسيدة ليلى، أنني والنساء والأطفال الذين كانوا معي. كنا على استعداد لتفهم «هجمة» وحوش البرية علينا والتهامنا. إنها حيوانات جائعة ونحن نعتدي على أرضها. صدقني إن ذلك لو حصل لكان في منتهى العدالة!

. لماذا تقولين هذا؟

. سأقوله أيضا في الغد، لأنه مفهوم وإنساني ومبرر وعادل و...

أحاول تهدئتها لكنها تواصل:

. كل شيء كان يبدو مفهوما ومقبولا إزاء وضع أيدي الأطفال في الأغلال!

تنظر إلى الجدران.. ثم تنظر إلى يدي وكأنها تتوقع أن ترتجف وترمي القلم!

لا تجد شيئا من هذا فتهدأ وتحاول أن تشرح ببطء وهدوء وحشية ذلك المشهد.

. هل يتصور أحد أيدي الأطفال في الأغلال؟ وأين..؟ في تلك البرية أمام الطير والوحش والوردة.. أمام الأمهات المغلولات أيضا!

تصمت مرة وأخرى وتحاول أن تعتذر:

. كنت عاجزة وسجينة ويدي في الأغلال، ولا أستطيع أن أقدم شيئا لأحمي أيدي الأطفال من برودة وقسوة الأغلال الحديدية.. لكنني رغم ذلك أشعر بالعار كلما تذكرت ذلك المشهد.

. حقا لم يكن هناك ما يمكن فعله. لا ينبغي أن تجلدي نفسك بهذه القسوة.

. لا.. كان هناك ما يمكن عمله.

كان بإمكاني أن أموت!

أن أصرخ وأموت حتى لا أرى الطفل في الحديد. حتى لا يأتي يوم أتذكر فيه يد الطفل وهي في القيد!



هل يشعر الأحياء بالذنب لمجرد أنهم بقوا أحياء؟
التقيت بالعديد من السجناء والسجينات وكانوا يتحدثون عن موت الآخرين بألم مفرط، كان الواحد منهم كأنه يلوم نفسه:
- لماذا مات الآخر وليس أنا؟!
في الحقيقة أن هذا الشعور ينم عن إحساس إنساني مفرط، و لربما وصل في بعض الأحيان إلى حدود المرض.. وثمة ما يجعل بعض هذا مفهوما:
أم فاطمة سجينة أميّة فقدت، وهي في السجن، زوجها واثنين من أخوتها وطفلها البالغ من العمر تسع سنوات!
لقد أعدموا أو قتلوا تحت التعذيب... كانت تصاب بنوبات جنون تتركز في اللطم وإطلاق هذا السؤال:
- لماذا تركوني حية؟! أنا لم أفعل شيئاً.... فلماذا يتركوني حية؟!

كانت في اليقظة والجنون تعتبر حياتها عقاباً شديداً لها بعد قتل كل أهلها!
إن مثل هذه الآلام بعيدة عن مخيلة القارئ وعن قدرته على تصورها... وما يضاعف هذه الآلام أن الضحايا يجهلون، في أحيان كثيرة مبررات وأسباب ما يحل بهم من موت وحياة وعذاب.
إنك وأمام ذكرى مشهد سخيف أو مؤلم أو محرج مررت به في يوم ما تشعر بالألم، وتتمنى لو أنه يمحى من ذاكرتك وحياتك. فكيف إذا كانت الذاكرة تنز دماً ورعباً؟



اقتادوا السيدة ليلى، مع نساء وأطفال قيدّوا جميعاً بالأغلال إلى سجن الموصل. وتحديداً إلى سجن الغزلاني في مدينة الموصل (٤٥٠

كيلو متراً شمال بغداد) وهو سجن كبير مخصص للسجن والتوقيف والتسفير.
السجن عبارة عن قبو طويل ومظلم تقريباً.. وقد قسم إلى قسمين، واحد للرجال وآخر للنساء، أما الأطفال... فهم، في هذا السجن تحديداً، بين نارين دائماً:
الأطفال عادة يكونون مع الأمهات السجينات، لكن ما أن يبلغ الواحد منهم هنا، السابعة من العمر حتى يؤخذ إلى سجن الرجال!
لقد أصيبت بعض السجينات بالجنون لأن أطفالهن كانوا سجناء في سجن الرجال. كان الأطفال يبكون ويبكون ولا أحد فيهم يفهم لماذا هو سجين، ولماذا أبعد عن أمه، خصوصاً أولئك الأطفال الذين ولدوا أو شبوا في السجن، قرب أمهاتهم!

كان عدد النساء في ذلك القبو الخانق يوم دخلت السيدة ليلى بحدود ١٥٠ سجينة من مختلف الأعمار ومختلف الأسباب السياسية، لكن غالبيتهن كن يزرن وزر أخرى:
الواحدة منهن سجينة أو رهينة لمجرد أن ابنها أو زوجها استطاع الإفلات من قبضة السلطة!
في مثل هذه السجون تنسى السلطة وجود هؤلاء السجناء. لقد أسلمت هذه المخلوقات إلى آلية العذاب والعقاب اليومي قبل أن يتم تحديد الجريمة.

سجن الغزلاني في الموصل خاص بالجرائم السياسية وهو تحت إدارة المخابرات، ورغم أن السيدة ليلى لم تبق هناك سوى أسبوعين، إلا أنها تتذكر هذا المكان وتتحدث عنه بكثير من الألم والرعب:
. بعد تفتيش قاس ومهين وسرقة ما يمكن سرقته أنزلوني إلى السجن.. كانت رائحة المكان خانقة.. لم أدر إلى أين أسير

أو أين يجب أن أتوقف. كنت مرهقة تماماً ومتألمة ومهانة، لقد ضربوني أيضاً عند أول وصولي!
لم تسأل أم زينب نفسها كثيراً عن وضع السيدة ليلى.. لقد رأت الذهول والاصفرار والألم على وجهها فأخذت بيدها وأجلستها إلى جانبها. لم تلح عليها كثيراً بالأسئلة، فآثار التعذيب كانت واضحة، حتى لأطفالها الثلاثة الصغار الذين انشغلوا بالنظر إلى تلك الجراح!
طيلة يوم كامل لم تنطق السيدة ليلى بكلمة واحدة.. أم زينب كانت تتحدث عن مدينتها الحلة وعن طفلتها التي قتلت أمام عينها.. لقد كانت في الرابعة من العمر!
أخرجت لي صورتها، وقالت لي:
-كانت تقف على الدرج يوم اقتحام رجال الأمن بيتنا فكانت أول هدف لهم!
كان الوقت ضحى..
وكانت تبكي عندما عاجلتها الرصاصات.. وقبل أن يأخذونا إلى السجن فجروا البيت أمامنا!
لم أستطع أن أدفن ابنتي!
كانت تبكي وهي تحدثني.. وكانت دموع أم محمد المرأة الكردية تسيل بصمت أثناء حديث أم زينب وأنا ساكتة لا أستطيع الكلام!
أم زينب كانت تتحدث للسيدة الصامتة، وهي مؤمنة أنها تستعيد ابنتها وبيتها وحياتها القديمة إذا ما استمرت في الحديث عنها.
وهي تتذكر تماماً كيف أنهت الفطور ونوع الطعام الذي كانت تريد أن تعده لزوجها عند عودته ظهراً، لكنهم جاءوا وقتلوا ابنتي ونسفوا البيت!
ما الذي أتى بها من الحلة (١٠٠ كم جنوب بغداد) إلى سجن الموصل؟ ما الذي أدخلها السجن أساساً؟
ثمة صبايا وشابات وعجائز وأطفال يغص

بهن السجن، وطيلة الأسبوعين اللذين قضتهما السيدة ليلى في سجن الغزلاني لم تر وجه السماء ولم تعرف الشمس ولم تستنشق هواء نقياً..

كان حبساً شديداً لكل شيء. لهذا بكت أول مرة في هذا السجن عندما وضعت رأسها في حضن أم محمد..الأم الكردية التي تجاوزت الخمسين من العمر وهي في السجن!

. صارت أم محمد بالنسبة لي مثل الأم! أضع رأسي في حضنها فتقبلني ثم أبكي وأبكي وأنام!

دائماً كنت في مثل ذاك الوضع أشعر أنني محمية منهم.. لا أحد يستطيع الاقتراب مني ما دمت في حضن هذه الأم العظيمة... أم محمد رهينة هي الأخرى!

. كيف يبدأ اليوم وينتهي؟ ماذا عن الليل... ماذا عن النهار؟

تقول السيدة ليلى:

في ذلك السجن المظلم لم يكن ثمة ليل أو نهار، كان هناك نوم ويقظة فحسب، في اليقظة (أي في النهار) هناك الضجيج، بكاء الأطفال والأحاديث المختلطة ببعضها. وفي النوم (الليل) هناك الصراخ والحشرجات والبكاء. كانت الكوابيس تسيطر على الجميع!



. بماذا كنت تحلمين هناك؟

. لا أحلام على الإطلاق.. هناك كوابيس فقط!



مرة كنت هناك.. فوق، على قمة جبل أخضر.

كل شيء كان جميلاً وريّاناً.. الخضرة في كل مكان والسماء قريبة وأنا أحمل في يدي خرطوم مياه عذبة أسقي به وأرش الحشائش وأصعد دائماً إلى القمة...

فجأة شعرت أنني على وشك السقوط من

القمة. يا إلهي! هناك من يسحبني أتشبث بخرطوم الماء، بالحشائش بالحجارة لكنني أسقط وأمتلئ بالرعب من تلك اليد التي تجذبني وأريد أن أصرخ.. لكن صوتي مرة أخرى لا يخرج من فمي، فيزداد خوفي وتزداد رغبتي في الصراخ ثم... أستيقظ وأجد أنني في السجن وأن السجينات استيقظن على صوت صراخي فأيقظنني من ذلك الكابوس.!...

أنام، وفي الصباح أصحوا فلا أصدق أنني في السجن. لا أعرف بالضبط الآن أيهما حقيقياً ومخيفاً أكثر: الكوابيس أم حياة السجن؟!

أن كوابيس السجينات متشابهة في الغالب: تكون الواحدة منهن جالسة أمام الطعام، فينادي عليها أحدهم قبل أن تأكل ويأخذها إلى التعذيب.

. هل هذا كابوس أم حقيقة؟

. أحياناً حقيقة وأحياناً كابوس!

. كيف؟

. من أكثر الكوابيس انتشاراً في سجون النساء هو كابوس المناداة على السجينة وقت الطعام وإخضاعها للتعذيب!

وهناك.. في الكابوس، تتعذب وتتعذب وتريد أن تصرخ لكن.. لا صوت! لهذا نستيقظ ونوقظ بعضنا إنقاذاً لنا من الكابوس!

تصمت السيدة ليلى وتضيف:

. في الحقيقة إن هذا هو ما يحصل خارج النوم:

كانوا يعرفون وقت الطعام وقبل البدء ينادون على من يريدون تعذيبها!

أنا حصل معي هذا مرتين في بغداد وبقيت فترة غير قصيرة وأنا أخاف كلما حان موعد الطعام... في الليل كان يتكرر معي ما حصل في اليقظة. أيهما الحقيقي وأيهما الكابوس؟!



سيدة من الناصرية كانت تقف أثناء نومها وتصرخ، وعندما نوقظها تحتضن طفلتها البالغة من العمر أربع سنوات وتبكي بصمت، لقد كانت تحلم أنهم يعذبون زوجها أمامها، وتحلم أنهم يعذبونها أمام طفلتها!

في الحقيقة إن هذا هو ما حصل معها في الواقع أساساً: لقد عذبوا زوجها أمامها وأمام طفلتها وعذبوها أمام زوجها وطفلتها. وضربوا الطفلة أمامها مراراً!

هذه السيدة أميّة ولا تعرف شيئاً من السياسة. عذبت وسجنت بهدف واحد هو الضغط على زوجها لقد أعدم زوجها أما هي فقد بقيت في السجن! لعلهم نسوها!



إذا كنت ستضع الكوابيس في باب خاص بها فيمكنك أن تضع فيه هذه الحالة:

كانت معنا في السجن سيدة كردية في الثالثة والثلاثين، اعتقلت في العام ١٩٨٦، زوجها أعدم في العام ١٩٧٦

قبل إعدامه طلبت مقابلة ساجدة خير الله، زوجة صدام حسين وكان يومذاك نائباً لرئيس الجمهورية، وتوسلت إليها العفو عن زوجها أو استبدال حكم الإعدام بأي حكم آخر فقالت لها ساجدة:

.الأكراد مثل الأفاعي.... يلدغون ويضمّون رؤوسهم!

فطلبت مقابلة صدام حسين «للضرورة القصوى» وعندما علم بطلبها قال لها ببرود:

.أنت لا تعرفين شيئاً... هؤلاء لا ينفع معهم غير الإعدام!

ثم ذهبت في اليوم التالي لرؤية زوجها في السجن فقيل لها: تعالي غداً لاستلام جثته!

في العام ١٩٨٦ وعندما اعتقلت كانت أدلة الاتهام الموجهة ضدها هي ملف زوجها الذي أعدم عام ١٩٧٦ وتحديداً محاولتها تخفيف الحكم عليه!

لماذا كانت تريد إنقاذ زوجها من الإعدام؟!
حول هذا السؤال تركز التحقيق وتعرضت لكثير من التعذيب وخصوصاً التعذيب بالكهرباء، فأصيبت بالصرع وبحالات هستيريا جراء التعذيب!

صمتت السيدة ليلى وقالت:
. ربما مازالت تلك السيدة هناك تتعذب.. أعتقد أن هذا ما يحصل لها فعلاً فهي ستكون عاجزة عن الإجابة على هذا السؤال..
التهمة . أو الجريمة:
. لماذا تريدين إنقاذ زوجك من الموت؟!
السيدة ليلى قالت:
. هذا السؤال وما ترتب عليه من سجن وتعذيب يجب أن يوضع في باب الكوابيس لأنه لا يمت إلى الحياة الطبيعية بصلة!

❖❖❖

الشتاء كان قاسياً في سجن الغزلاني، ثمة فراش للسجينات في ذلك القبو الإسمنتي الرطب، هو لم يكن أكثر من بطانية واحدة لكل سجينة:
لها أن تنام عليها أو أن تتدثر بها!

الأطفال، وبسبب الوضع غير الطبيعي وحالات الرعب التي يعيشونها كانوا في غالبيتهم يعانون من السلس الليلي.... كان هذا الوضع يزيد حالة الفراش سوءاً.
الطعام الذي كان يقدم للسجينات هو أشبه ما يكون بعقوبة أو تعذيب.
. أي حديث تتبادله النساء في ظلمة ذلك القبو؟
تقول السيدة ليلى:
. في السجن جامعيات وفلاحات وأميات.. عربيات وكرديات، أمهات وصبايا، مهتمات بالسياسة بشكل مباشر أو لا يعرفن عنها شيئاً.. كل هذا الخليط الغريب عن بعضه يمكن أن يلتقي على التبحر والتعمق في موضوع واحد هو القانون والمواد القانونية!!

لا أعرف حتى الآن مصدر معلومات السجينات في كل السجون بمواد القانون، وفي الحقيقة فإن كل مواد القانون المتداولة كانت تنص على الحكم بالإعدام، لكن السجينات كن يطمّن بعضهن بالقول أن المادة ١٥٧ مثلاً مقسمة إلى قسمين:
ألف، وتعني الإعدام، وباء، وتعني المؤبد.
وعلى هذا الأساس كان يجري التطمين:
. لا تخافي.. أكيد مؤبد.. أو.. ان شاء الله مؤبد! ولعلّي لم أسمع امرأة تتوقع البراءة! لم يكن في ذلك أي تشاؤم فالوصول إلى محكمة الثورة يحول الحلم بالبراءة إلى شيء من أكثر الأفعال سذاجة وجهلاً بواقع الحال.
الغريب أن السيدة ليلى كانت أكثر الناس، أو أكثر السجينات جهلاً باختصاصها. وأعني القانون. تقول:
. أغلب مواد الإحالة أو الاتهام هي ممّا لم يرد في القانون العراقي الذي درسته، حتى المادة التي حوكمت بموجبها لا وجود لها في أي قانون:
«الاشتباه بوجودي في تنظيم معاد»!



في ذلك الصمت النادر، الذي كان يحصل حين يحصل، بعد الغداء كانت تلك الشابة الجامعية تنهض وتلقي سؤالاً موجهاً إلى.. لا أحد:
. يعني كم سنة عقوبة التهجم؟ ١٠ سنوات؟ ١٥ سنة؟ ٢٠ سنة؟ لا يهم. المهم مو إعدام!
(التهجم يعني شتم الرئيس أو أحد المسؤولين، وأثناء وجود السيدة ليلى في السجن أعلن رسمياً عن إصدار قرار بتوقيع صدام حسين يقضي بإعدام كل من يشتم أو ينتقد رئيس الجمهورية)!
كانت تلك الشابة عندما ترى هزة رأس مؤيدة من النساء تجلس مطمئنة، ثم سرعان ما تضع رأسها بين ركبتيها وتنخرط في بكاء مرير!

تلك الشابة كانت تشعر بالذل في داخلها لأنها «فرحت» بالسجن المؤبد!

كانت طالبة في كلية (...) بجامعة الموصل، كانت أمل أهلها في تلك المدينة الصغيرة والبعيدة عن الموصل، وكانت تنظر للقسم الداخلي الذي هي فيه كما تنظر إلى سجن مؤقت، ستخرج من هنا عما قريب. ستنجح في حياتها وتساعد أهلها، وتحب وتتزوج و.. سيكون لها طفل وآخر وآخر.. لكنها في تلك اللحظة ضاقت ذرعاً بصوت الراديو.. عليها أن تدرس حتى تستطيع النجاح وتحقق أمنياتها، لكن تلك الأغنية الصاخبة تشوش عليها، وكان المغني يصرخ: «الله يحفظك سيدي» متملقاً صدام حسين، ودون أن تدري قالت لزميلتها:
خلصينا من أغنية.. سيدي!
زميلتها وشت بها إلى الاتحاد الوطني للطلبة، والاتحاد وشى بها إلى الأمن، وعندما اقتادوها بعد أسبوع من الجامعة كانت قد نسيت كل القصة.
لكن التعذيب جعلها تتذكر كل ما يريدون، وهكذا وصلت إلى سجن الغزلاني في طريقها إلى بغداد حيث محكمة الثورة!

السيدة ليلى قالت إن عدد المتهمات بشتم الرئيس يأتي في المرتبة الثانية بعد السجينات اللواتي أخذن كرهائن!
تلك الشابة لن تعود إلى الجامعة. لعلها لن تتذكر أحلامها القديمة، وربما لن تردد في هناءة أغنية تحمل ملامح حبيب لن يعرف الطريق إليها!
تلك الشابة.. وفي وقت مبكر من حياتها صارت تقيس الأمور هكذا:
الإعدام سيء جداً.. السجن المؤبد أمر جيد! إنه، وكما تقول كل سجينة أفضل من الإعدام!



تولد.. تكبر... تتعلم ثم تحلم.
الأرض التي تقف عليها تغبطك لأنك في سن الشباب والأحلام التي لا تنتهي.
فجأة يتلاشى كل شيء.. الشباب والأحلام!
وتختصر حياتك إلى كتلة في قبو مغلق.. كتلة تردد إن أرادت الابتهاج:
السجن المؤبد أمر جيد... ربما جيد جداً.. أليس هو أفضل من الإعدام ؟!
إذا رأيت جنوناً، أو بعض الجنون، في مثل هذا الكلام فلهذا تفسير وحيد:
. أنت لم تكن يوماً في ذلك السجن... في ذلك العراق!



سيأخذون السيدة ليلى عما قريب إلى بغداد.
لك أيها القارئ أن ترتاح الآن، إن شئت، توقف قليلاً ولا تحاول الخلاص من هذه «القصة» المسمومة دفعة واحدة، توقف وتأمل، تذكر:
إن هذا العذاب جرى ويجري على مقربة منك.
هل يعنيك أمر إيقافه؟!
أضعف الإيمان هنا، أن تتذكر أنه يومياً يحصل هناك لنساء عديدات مثل الذي حصل للسيدة ليلى، والسيدة ليلى، إن نسيت، هي سيدة محظوظة رغم كل شيء: ألم تستطع الهرب في النهاية؟ ألم تتوفر لها فرصة رواية ما حصل لها ولغيرها؟!
رغم أن الطريق من الموصل إلى بغداد يستغرق أكثر من خمس ساعات إلا أن السيدة ليلى لا تتذكر شيئاً عنه، أو عن مشاعرها وهي تنقل من سجن الانتظار إلى سجن القرار.
. لماذا؟
. كنا في سيارة مغلقة، ٥ إلى ٦ نساء تعرضنا

في الفترة السابقة إلى تعذيب ومهانة وها نحن نؤخذ إلى بداية الألم والعذاب مرة أخرى..

. ألم تُحوّل أوراقكم إلى المحكمة؟

. ظاهرياً نعم.. لكننا كنا نعرف أنهم في بغداد سيعيدون التحقيق والتعذيب معنا.. لقد عرفنا هذا في السجن ومن تهديدات رجال الأمن لنا!

. في الطريق إلى مدينتك بغداد.. هل كنت تشعرين أنك تقتربين من الكارثة أم من الخلاص؟

. كنت أقترب من الكارثة.. هذا، على الأقل، ما تأكدت منه لحظة وصولي إلى بغداد!



وصلت السيارة متأخرة عن موعدها، لهذا تم اقتياد السجينات إلى تسفيرات بغداد وأودعن في قاعة كبيرة وباردة حتى الصباح.

كان البرد الأسوأ في كل تجربة السجن! طيلة الليل كان الهواء البارد يمزق أجساد خمس سجينات مدميات.. لا تشغل بال الواحدة منهن سوى أمنية واحدة:

. لحظة دفء.. وأن يكون الحكم بالسجن المؤبد لا الإعدام!



أغمضت عينها امرأة من ألم وخوف، فجاء الحلم:

طفلة مع أختها وثلاثة من أخوتها تجمعوا حول النار... وثمة في الجمر ثمرات بلوط وهسيس النار والشرار المتطاير يختلط بالضحكات، وصوت الأم يأتي من هناك في تشكٍ عذب:

. انتبهوا للنار!

تركض الطفلة لأمها فتتعثر في الطريق وتقع ويتعالى الضحك، وتركض الأم

فيصل صوتها ملهوفاً قبلها:
- سلامات.. سلامات!
وتضيع الطفلة الصبية، الشابة، المرأة، فوراً في حضن الأم وتنخرط في البكاء، يد الأم مازالت كبيرة ودافئة. والطفلة المرأة تبكي وتنشج وتريد أن تتكلم، تريد أن تقول أن خاصرتها جريحة، فتعجز عن الكلام.. ليس ثمة غير البكاء!
يزداد ألم الخاصرة، كما لو سكاكين حادة تنغرز فيها، فيزداد التصاقها بأمها وتعبر عن هلعها من الألم بالرغبة في أن تكون جزءاً من حضن أمها. وصوت الأم يردد:
- اسم الله.. اسم الله!
تستيقظ المرأة التي من ألم وخوف، المرأة التي أغمضت عينيها في ذلك السجن البارد.. فتجد نفسها في البرد، وصوت زميلتها يحاول أن يطمئنها إلى أنها صحت من نومها... وخرجت من الكابوس!
تمسح دموعها وتعتذر عن صراخها، تعتذر عن كابوسها.. وتمد يدها خلسة إلى خاصرتيها، فتجد أنهما كما لو تجرحتا من تيارات الهواء البارد، تحكي لزميلتها في السجن :
- تصوري كنت قرب النار والبلوط وكانت هناك أمي وأخوتي و...
تنخرط في البكاء وتتمنى لو تعود إلى النوم والحلم وحضن الأم وكل ذلك الدفء لكن الإغفاءة الآمنة تبدو في تلك اللحظة هي الفردوس المفقود!



في سيارة مغلقة... في سيارة سجن تم وضع السيدة ليلى.. السيدة التي يداها في الحديد!
سارت السيارة السجن في أماكن عديدة: القناة، الشيخ عمر، ثم توقفت في مديرية أمن بغداد في الكرادة، تمَّ استلامها ووضعت في غرفة سرعان ما تبينت أنها غرفة تعذيب.

. كيف عرفت أنها غرفة تعذيب؟
. صرت أعرف هذه الأمور، ففي الغرفة لا يوجد سوى كرسي وطاولة ودولاب تركت أبوابه مفتوحة عمداً كي أرى آلات التعذيب الموجودة فيه!
في هذه الغرفة بقيت السيدة ليلى من الصباح حتى منتصف الليل لا ترى أو تفكر بغير أجهزة التعذيب، وفي هذه الغرفة بالذات ستقف عم قريب لتتلقى التعذيب على يد طالبها الجامعي!
هل تتذكر الآن أيام الجامعة؟
هل تهدئ مخاوفها الآن صورتها وهي محاطة ومحمية بطلبتها وطالباتها؟
نعم.. لم تكن الجامعة أرضاً محرمة على الأمن والمخابرات.
لكن.. رغم ذلك كانت، وهي تلقي محاضراتها وتلتقي عيونها بعيون طلبتها، تشعر أنها في الأمان.
و..من الخطأ أن استرسل في محاولة استعادة ذاكرة السيدة ليلى في تلك الساعات. أعرف أنني أفعل ذلك وأذهب إلى الجامعة والى لحظات يحترم فيها الطالب أستاذه كي أعمّق تأثير الصدمة التالية حين فتح الباب بقوة وأطل منه الطالب الجلاد! لكن.. أيحتاج المشهد حقاً إلى تفاصيل بهذه المأساوية:
أستاذة جامعية تتعذب على يد طالبها الذي درّسته القانون!
على أية حال.. هذا هو ما حصل بالضبط!
فتح الباب بقوة وأطل منه وجه الطالب.
. لم أعرف إن كان علي أن أفرح أو ازداد حزناً وخوفاً، للحظات بدا لي الوجه مألوفاً، وعندما أغلق الباب بقوة حاولت أن أتذكر بأسرع ما يمكن..
مرت الصور و الأفكار سريعة في خاطري وأنا أتساءل:
. أهو ضحية هنا أم جلاد؟ معي أم ضدي؟ وإن كان جلاداً فهل سيساعدني؟!

لكنني استبعدت فكرة أن يكون جلاداً.. لقد تذكرت.. إنه أحد طلبتي، لقد كان خاملا ومن المستحيل أن يكون جلادا.. من المستحيل أن يكون طالب حقوق جلاداً محترفاً!
لم يطل الوقت بالسيدة ليلى حتى كانت مرمية عند أقدام تلميذها، كان يتحدث ويضرب مثلهم!.
في الكلية كان صامتاً.. ولم يكن يتحدث قبل أن يرفع يده مستأذناً.. مثله مثل أي طالب. لكنه في مديرية أمن بغداد كان يشتم ويضرب ويهين أستاذته دون استئذان!
. أردت مرة أن أذكره بما درسته له.. لكنه قاطعني بشتيمة بذيئة وانطلق كالمسعور:
. حقراء! هناك تسممّون أفكار الطلبة وهنا تتوسلون!

لم ينظر في عيني لفترة طويلة طيلة جلسات التعذيب التي كان شريكاً بها، كان يتحرك كالمسعور ويشتم ويضرب كالمسعور.
حتى ذاكرته كانت مسعورة:
. ما بها حقوق الإنسان هنا؟ هل كنت تعتقدين أن تلميحاتك كانت خافية علينا!؟
تصمت قليلاً ثم تقول بحزم:
. لن نتحدث عنه.. لا أريد أن أتذكر إن هذا حصل لي.. أساسا لا أريد لأحد أن يعرف بطالب قام بتعذيب أستاذته.. ستسوّد الدنيا في عيون كثيرين!
أيتها السيدة!
لن أخفي عنك نواياي.. وبصراحة فإنني أنوي استخدام قصة هذا الطالب في هذا الكتاب بشكل مثير!
أريد من خلاله أن ألفت الأنظار أكثر إلى مأساة العراق والعراقيات!
لقد اعتاد الناس على قيام الجلاد بتعذيب

الضحية، وفي حكايتك لن يكون ما هو جديد أو مثير! أنت مجرد ضحية أخرى لجلاد آخر.. لكن قصة هذا الطالب تجعل الأمر مختلفاً..

سيرفع القارئ حاجبيه ويفتح فمه قليلاً قبل أن يقول:

. هل هذا معقول؟!

ولعل هذا القارئ والقارئة، يخبر صديقاً له بهذه الحكاية المثيرة:

طالب جامعي قام بتعذيب أستاذته التي درسته القانون!

و..تقاطعني السيدة بصمتها وتقول بيقين:

. لم يكن إلاّ جلاداً... منذ اللحظة الأولى فضلت أن أنسى أنه كان طالباً عندي. هذا يكفي!..



لم تكف السيدة مرة عن محاولة الانسحاب والتوقف عن رواية ذكريات التعذيب.

مرة قالت لي:

. أتدري؟.. أشعر أنه من المعيب والمهين أن يقرأ الناس شيئاً كهذا!

كررت عليها ما أعتدت ترديده عندما أصر على استمرارها:

. العيب أن الذي تتحدثين عنه ما زال يحصل كل يوم هناك. لابد من إيقافه!

. وهل الأوراق والكلمات قادرة على إيقافه؟

. لا أدري... ولكنها تجعله معروفاً. في الأقل لن يرتكب المجرم جريمته وهو مطمئن إلى سريتها.

تدخلت زوجتي اليائسة، بسبب طول المنفى، من جدوى الكتابة والكلمات وقالت:

. لا ينبغي أن تكتب شيئاً من هذا... إنه مسيء لسمعة الإنسان!



اصرخ قليلاً أيها القارئ!

اصرخ بأعلى صوتك!

لا تخف من لفت انتباه الآخرين لك.. لن تضايق جاراً ولن تفزع متأملاً... إنها مجرد

صرخة عابرة.. صرخة ضائعة مثل صراخ أولئك الضحايا!

إن لم تستطع الصراخ بأعلى صوتك فاصرخ بنصفه أو بربعه..

اصرخ إن شئت بصمت!

إن كنت عاجزاً عن كل هذا فلا بأس: أكتب صرختك على الورق!

أكتب صرختك هكذا: آآآه ه ه ... آه!

هكذا يصرخون على الورق!

افعل أي شيء كي لا يقال إنك سمعت وقرأت وعرفت بما يحصل للأمهات والصبايا على أيدي وحوش بشرية وبقيت صامتاً!

إنني مؤمن أن صرختك لن تذهب سدى.

أيها القارئ... أيتها القارئة:

صرخة، ولو بصمت، صرخة ولو في الفراغ أفضل كثيراً من الصمت!



ذات يوم.. لم تحتمل ليلى كل ذلك الألم: كانت بين أقدامهم في مديرية أمن بغداد. سقطت على الأرض من وقع الضربات فرفعوها ثم سقطت، وعندما رفعوها صرخت بوجوههم:

. سفلة.. قتلة! أليس لكم أخوات.. ألم تلدكم أمهات؟ ما الذي فعلته لكم!؟ أسقطوها على الأرض كما لو مستهم صاعقة، وما هي إلا لحظات حتى هجموا عليها بشراسة أكبر!

لقد فقد الضرب هدفه وصار مطلوباً لذاته. اشترك المحقق معهم بالضرب، وهو في العادة يكتفي بالقليل منه وبتوجيه الشتائم، وعندما شعر الجميع بالتعب، نظر المحقق إلى كتلة اللحم الدامية التي بين أقدامهم قال وهو يلهث:

. لتمت هذه العاهرة.. ضعوا لها الكهرباء! وكأنهم جميعاً وجدوا الحل.. فهجموا عليها وحملوها إلى الكرسي، كتلة لحم دامية وغائبة عن الوعي..

. لم أعرف ما حصل بالضبط، فجأة استيقظت على هزة صاعقة.. فأيقنت أنني في الكهرباء.
كانت الأسلاك على يدي وعلى شفتي، ورأيت المحقق يحرك جهاز التعذيب الكهربائي بيده، وكانت وجوه الجلادين تنطق بالشتائم البذيئة.
وبحركة من يد ضابط التحقيق ارتعش جسد السجينة ثم توقفت الحركة فيه.. وتذكرت السيدة ليلى فيما بعد، أنهم نادوا على الطبيب فقاس ضغطها وقلب جراحها ثم زرقها بإبرة، وعندما استردت وعيها كاملاً سمعته يقول بأسلوب «أكاديمي»:
. اليوم لن تستطيع تحمل التحقيق! لتأكل قليلاً من التمر فضغطها منخفض.
وكأنها اطمأنت فعادت للغيبوبة وكانت تعي تماماً أنها شبه مخدرة.
. عندما فتحت عيني، وجدت الضابط الذي عذبني يضحك وهو يقدم لي الماء والتمر.. قال لي بشماتة وانتصار وهو يشير إلى جراحي وملابسي الممزقة:
. ألم أقل لك أن الاعتراف أحسن؟ انظري إلي حالك.. ما الذي فعلته بنفسك؟!

بيده كل شيء ويستطيع مادام منتصراً وواقفاً على أشلاء الضحية أن يلومها ويؤنبها على «ما فعلته بنفسها» !
لقد نظر إلى جرح في عنقها نتيجة ضربة سددها هو بيده ذات الخاتم الثقيل، فصرخ متظاهراً بالأسف والشفقة:
. هل هذا معقول؟ هل أنت مجنونة حتى تفعلي بنفسك كل هذا؟!

ما ضايق السيدة ليلى في هذا، أنها لم تستطع التيقن مما إذا كان جاداً في كلامه أم أنه كان يسخر منها بقسوة؟
في النهاية وإزاء صمتها قدم لها التمر.. لكنها رفضت أن تأكل.. كان الخدر ما زال

يشل شفتيها.. قال ضاحكاً:

. صحيح.. الكهرباء أثرّت على فمك ولكن يجب أن تأكلي. الطبيب أوصى لك به!

حركت رأسها برعب من فكرة الأكل. فأطلق ضحكة حاول أن يضع فيها كل قوته وما يعتبره سرعة فهمه:

. ها.. أنت تظنين أننا وضعنا لك الثاليوم في التمر؟!

استمر بالضحك ومد يده وبدأ يأكل:

. انظري.. إنها ليست مسمومة!

تحرك باتجاه الباب، وقبل أن يفتحه قال:

. مازال الوقت مبكراً على موتك. كلي.. ولو متّ فأنت الرابحة!!



بعد قليل فتح الباب بقوة.. دخل اثنان ومعهما صبي في الثالثة عشر من العمر. ألقيا به على الأرض بقوة ثم تقدما نحوي وجراني إلى غرفة مجاورة واقفلوها علي، وبعد أقل من دقيقة جاءتني الأصوات المرعبة:

. اعترف يا كلب!

ثم ارتفع بكاء الطفل وسمعت صوت الضربات، وتحول البكاء إلى صراخ وتحول الصراخ إلى مجرد صوت، لم أتبين إن كان بشرياً أم حيوانياً، لكن صوت الضربات المكتومة كان يصل إلي عبر الحائط فأمتلئ رعباً.. وأتمنى لو أفتدي هذا الطفل من الضرب والرعب!

تذكرت في تلك اللحظة أن امرأة كردية واستني في سجن الموصل قائلة:

. أنتو العرب لا تتحملون الضرب والسجن. إحنا الأكراد متعودين!

انفتح الباب بقوة وجاء الجلادان وهما يلهثان ثم جراني إلى الغرفة التي أخرجاني منها.

سقط قلبي بين ضلوعي عندما شاهدت آثار دماء على الحائط.. إنها دماء الطفل! لقد تقاذفاه بالضرب القاسي ولا أدري إن كان قد مات أم أغمي عليه! ؟

ورغم كل الألم الذي عانيته في تلك الليلة من التعذيب، الذي استمر أكثر من ساعتين لم أستطع النوم، فصورة الدم التي على الحائط كانت ترسم أمامي مشهد الرعب فتتردد أصوات الذعر والهلع التي سمعتها قبل قليل من طفل كانت تتقاذفه أيدي الوحوش!

من يستطيع النوم؟!

في تلك الليلة.. شعرت لأول مرة أن الإنسان بحاجة إلى طاقة هائلة حتى يستطيع مواصلة العيش مع وجود كل هذا الأذى.. والرغبة في صنع الشر!



في مثل هذه الأجواء المظلمة، يحتاج الكاتب إلى وقفة هنا أو هناك يتحدث فيها عن شروق الشمس، عن سعادة ما.. عن ضوء، أي ضوء يأتي من آخر هذا النفق المظلم.

إن أي خبير في الكتابة ينصح الآخرين بمثل هذا وهو على حق.. إذ يبدو من الصعب على أي كاتب في العالم الإمساك بقارئه إلى النهاية مادامت الأحداث التي يقصها تجري في الظلام، ظلام المكان، وظلام الروح، لكن... من أين تأتي الشمس والجدران تتقارب من بعضها حتى لتكاد تطبق على من فيها؟!

على أية حال فإن بإمكان أحد غيري أن يكتب عن الشمس التي أنارت المكان وعن خفقة جنح الطائر وثغاء الحمل وكركرة الطفل وتنهدات الصبايا، وهي كلها أمور كانت موجودة في الأركان القصية من ذاكرة السجين والسجينة.

لكن الضحايا في حقيقة الأمر، كانوا يخافون من تذكر متع البشر! كانوا

يخافون على ضحكة الطفل وانطلاقة الطير من قسوة الجلاد!
ماذا لو أمسكوا طفلاً أو حبيبة خطرت في فكرة تدور في رأس سجين؟ ماذا سيفعل صناع الشر والأذى بها؟!
لم يبق إلا القليل... وما على القارئ إلا الصبر حتى النهاية، وهي وشيكة... على الورق!



لكأنني أردت الاعتذار بهذا كي أنتقل للمشهد الأخير.. مشهد السيدة ليلى صباح اليوم التالي(ثمة شمس في الصباح. أليس كذلك؟) في الصباح اقتادوها إلى صندوق انفرادي.
في الصباح.... اقتادوها إلى الليل!
أخذوها إلى زنزانة انفرادية لم تستطع حتى الآن تقدير مساحتها بالضبط لكنها قالت:
. كي أنام أو أجلس عليّ أن أبقي ظهري مرفوعاً. أو أرفع ساقي، فالزنزانة مصممة عمداً بهذا الشكل!
الزنزانة مظلمة تماماً، وباردة ولم يكن ثمة شيء غير الاسمنت القاسي البارد.
طلبت فراشاً وغطاء فسخروا مني وشتموني.. وكأن مخططا أكثر مأساوية كان يتقدم باتجاهي هو الذي جعل تصميم أبواب الزنزانة لا تفتح إلا للداخل!
في هذه العلبة قضيت قرابة الشهرين!

. متى كنت تغادرين الزنزانة؟
. مرة في اليوم.. من أجل التعذيب!
. ولماذا التعذيب هذه المرة؟ هل تغيرت الأهداف والأسباب؟
. في البداية كان التعذيب عقاباً لي لأنني لم أعترف سابقاً، ثم... يوماً فيوماً كان يأخذ طابع العمل العبثي!

حتى أنا التي كنت أتألم وأقترب من الموت بدأت أنظر له كما لو كان مجرد عبث مؤذ!

عزلوا السجينة أولاً، ثم أخذوا بتعذيبها بانتظام ولمرات عديدة.. نسوا أن يطلبوا منها الاعتراف. فقط كانوا يضربون ويضربون لكأن الأمر أصبح تأدية عمل روتيني فحسب!
من يدخل لهذا المكان يجب أن يضرب ويهان ويدمر!
مرة قال أحد الجلادين للسيدة ليلى باطمئنان:
. ستعترفين في النهاية.. كل الذين سبقوك فعلوا هذا!
وفي مرة أخرى لم يجد جلاد آخر ما يغريها به غير أن يكرر أمامها ما قاله زميل له من قبل بعد انتهاء الجولة التعذيبية الأولى:
. لو اعترفت سآخذك إلى البيت.. ستكونين عندي وستصبحين عمة لمنى. أنت مثل أختي. كان يردد هذا كلما أوغل في قسوة التعذيب.
أسأل السيدة ليلى:
. كيف استطعت تحمل كل هذا التعذيب؟ إنه يبدو أكثر من طاقة الجسد على التحمل.
. عندما هزل جسمي واصفر لوني تماماً، صاروا يتأكدون من وجود الطبيب قبل البدء بالتعذيب! وفي كل مرة كان يأتي الطبيب ويفحصني ويقرر ان كان بامكانهم الاستمرار بالتعذيب أو تأجيله إلى الغد. وفي بعض الأحيان كان يصف لي الدواء!
تضحك السيدة ليلى وتقول:
. ذات مرة جاءوني إلى الزنزانة بصحن فيه رز ومرق ولحم مع رمانتين! فخفت من تناول هذه الوجبة! اعتقدت أنها لأحد الضباط، ولو أكلتها فسأدفع الثمن غالياً لكنهم أخبروني أنها لي!

قالوا لي: كلي.. إنها بأمر الطبيب!
وفي اليوم التالي فحصني الطبيب الذي أمر لي بذلك الطعام الشهي وقرر:
. يمكنكم مواصلة عملكم معها!

مرات عديدة كانوا يأتون إلى زنزانتي لأخذي إلى التعذيب، فيجدونني مغمى عليّ فيستعينوا بالطبيب الذي كان يقرر إن كانت حالتي تتحمل التعذيب أم لا! وفي الأيام الأخيرة فقدت الإحساس بكثير من الأشياء، صرت أذهب إلى التعذيب وأنا في حالة اقرب ما تكون إلى الإغماء وأعود وأنا في الإغماء!



سينوء الجسد عما قريب بالروح العنيدة، وبالتحدي الكبير!
النفوس العظيمة ترهق الأجساد التي تحملها.. والسيدة ليلى يوم كانت تتلقى الضربات الموجعة والمهينة، ويوم كانت تتعرض لصعقات الكهرباء والسكائر المطفأة في الجسد لم تكن تفكر بالبطولة والروح العظيمة. لم تكن تفكر بأبعد من هذا:
. أي أسم سأذكره لهم سيأتون به إلى هنا.. فيتعذب دون حدود ويطلبون منه أن يذكر لهم أي اسم!
لن أكون سبباً في وقوع إنسانة أخرى بيد هؤلاء الوحوش. الموت أهون عليّ من أن أتسبب في تعريض امرأة أو رجل لهذا العذاب!
هل تسمى هذه بطولة؟! هل أصبحت البطولة هي مجرد محافظة الإنسان على أبناء جنسه أمام الوحوش؟!
ولماذا البطولة في بلادنا مسورة بالدم والعذاب والفظائع؟

سيدق الموت بوابة الزنزانة الانفرادية

للسيدة الوحيدة، ستدق يده وتمتد ويبدو كما لو كان المنقذ الحقيقي والوحيد من هذا الألم!



. ألم تشاهدي سجينات أو سجناء آخرين في مديرية أمن بغداد؟
. كل الزنزانات المجاورة لزنزانتي كانت مليئة بالنساء، وذات مرة أخذوني إلى فوق للطابق الثالث لمزيد من التعذيب وكانوا يجرونني على الأرض فسمعت صراخ رجال يتألمون:
. امرأة معنا! لقد عذبوها!
رفعت رأسي فوجدت الرجال في الزنازين. أحسست أنني رفعت معنوياتهم وأنهم حاولوا بصرخاتهم إبداء التعاطف معي وتشجيعي على المواجهة!
. غير هؤلاء السجناء.. ألم تشاهدي أحداً؟
. في الانفرادي لا.. لكننا كنا نتبادل الرسائل!

كل سجينة كانت تعرف مواعيد التعذيب؛ يفتح باب ما بقوة فتتبعه صرخة مكتومة (أبواب الزنزانات الضيقة تفتح للداخل، وهي بهذه العملية تصيب السجينة ببعض الجراح والسجحات إن لم تكن مستيقظة أو منتبهة) ثم تتلو ذلك حركة أقدام، وأحياناً مقاومة يائسة من جسد يجره آخرون: إنها سجينة في طريقها للتعذيب!
الثواني والدقائق تمر بطيئة ومخيفة، كل سجينة تعرف أن هذا الوقت الذي يمضي يشهد تعذيب السجينة التي تم اقتيادها.. وبعد ساعة، أو ساعتين.. يفتح باب ثم يغلق بقوة:
لقد عادوا بالجسد المدمىّ من حفلة التعذيب، ويتم التأكد من كون السجينة مازالت على قيد الحياة بالضرب على الحائط، يتنقل الضرب من زنزانة لأخرى

معلناً أن ثمة حياة أقوى من وحشيتهم! تأتي السجينة وفي ذهنها أن تطمئن سجينات أخريات، لم تر وجوهن ولم تتعرف على أسمائهن، فتضرب على الجدار رغم شراسة التعذيب الذي تعرضت له، ثم تستطيع أن تستسلم لغيبوبتها باطمئنان!

ما جدوى هذه الحركة؟
ما قيمة أن تضرب على حائط أصم في زنزانة تحت الأرض؟
لا ينبغي البحث عن المعاني الكبيرة وراء ضربات من هذا النوع.. فهو ليس أكثر من إعلان عن الحياة! فيطمئن الآخر أن الحياة مازالت بجواره.. إن الحياة البشرية قائمة رغم وحشية المخلوقات التي حولت الحياة الى كابوس!



الزنزانة ضيقة ضيقة.. والظلام ثقيل ويجثم على الروح، والسيدة ليلى تكاد تنسى شكلها، فهي ومنذ شهرين تقريباً لم تر وجهها في مرآة.. إنها في هذا الظلام تكاد لا تتعرف إلى نفسها، والى الأشياء والجدران المحيطة بها إلا باللمس!
ليس من الضروري أن يكون المخلوق امرأة حتى يفتقد المرآة.. الرجل أيضا يريد أن يتعرف إلى شكله والصورة التي صار عليها بعد هذا التعذيب والعيش المتواصل في الظلام!
لقد أتيحت هذه الفرصة للسيدة ليلى ذات مرة.

في المغاسل التي اقتيدت إليها وجدت كسرة من مرآة. وبيد مرتجفة رفعت المرآة وأغمضت عينيها ثم فتحتهما ببطء. وبسرعة خاطفة أغمضت عينيها!
وفي داخلها أحست بنفسها كالمصعوقة:

. من هذا المخلوق؟ ما هذا الشيء؟!
لم تتساءل عن مخلوقة.. بل عن مخلوق.. عن شيء!
وهي مغمضة العينين أدركت، بفزع، كم يستطيع الرعب والألم والعذاب مسخ الشكل الإنساني وتحويله إلى مخلوق مخيف!
. هذا أمر طبيعي... كدمات وجراح وخوف وحرمان من الماء والمشط... من الطبيعي أن يتحول الإنسان بعد هذه الأيام والأسابيع إلى مخلوق مشوه!

. حقيرة هل أنت شغلنا الوحيد؟!
جاءها صوت الحارس مخيفاً هذه المرة، رغم أنها اعتادت عليه كلما دخلت إلى الحمام، وبثوان قليلة كان عليها أن تحسم أمرها: هل تنظر لنفسها في المرآة مرة أخرى أم لا؟! وكما لو كانت تعرف تقدير الجزء من الثانية في تلك اللحظة قررت أن تنظر للمرآة بهذا القدر:
جزء من الثانية!
نظرت كما لو أنها كانت لا تريد أن ترى وتتأمل قدر ما تريد التأكد من أن ما رأته في المرة الأولى كان حقيقياً!
. قد تقول أنني، وبسبب كوني امرأة، أعطيت هذا القدر من الاهتمام لما حل بشكلي، ربما كان هذا صحيحاً لكن الأكيد هو أن أي مخلوق، أي مخلوق، كان سيصاب بالانهيار لما يراه!
إنك، وسواك تعتقد أن الألم هو أسوأ ما يحصل للبشر، لكنك لا تعرف عن الأسوأ من هذا إن لم تكن هناك وترى ما يفعله الألم والرعب.. سترى بريق العينين وهو يخبو ويتلاشى. ستنظر إلى الأسنان وأنت تريد الاطمئنان على ما تبقى منها فيرعبك اصفرارها. لن يكون قلبك في مكانه وأنت تتساءل:
. من هذا؟ ما هذا؟!
تقول ما هذا وأنت تعرف أنه أنت!



في الظلام يأخذ النوم شكل إغماضة العين فقط، أو شكل الإغماء. لن تعرف الفرق! إن العيش في الظلام يبدل معنى الأشياء، يبدلها حتى يتبدى الوهم في شكل الحقيقة والحقيقة في شكل الوهم.. ولن تعرف بأيهما تستجير وإلى أيٍّ منهما تلجأ؟

أغمضت ليلى عينها في الظلام ورأت ما كانت تريده بقوة:

. ليلى تخطو تحت المطر.. المطر خفيف وهي تلبس معطفاً أخضر، خطواتها مكتومة ورائحة التراب المجنون برذاذ المطر تملأ الدنيا وتحيل المخلوقات والأشياء إلى طفولتها. .

تسرع ليلى في ذلك الرذاذ، في المعطف الأخضر، في عطر الأرض.. وتكتشف أنها تحاول اللحاق في شارع الرشيد بثلاث فتيات يسرن بسرعة وينثرن الضحكات!

تسرع ليلى وتسرع الفتيات، صديقات الطفولة، يسرع المطر وتصير الرائحة أقوى، وثمة برد يتنزه على الخدين فتشعر كما لو أن ناراً من بردٍ وسلام تحمي وجهها، تسرع وتسرع ثم تصرخ بأسماء نسيتها الآن فتلتفت الطفولة:

ليلى وهي في الصبا الأول وأختها التي ماتت والأم!

تفرح، ترتبك لأنها التقت بها هي، التقت بنفسها يوم كانت صبية، ولأن أمها وأختها.. ولأنها تريد أن تتكلم، لكن النساء الفتيات الثلاث ينظرن بدهشة ويتلمسن الوجه بحنان واستغراب:

. ما الذي فعل بك هذا يا ليلى؟!

تفتح ليلى عينها كي ترى ما الذي حصل، فتجد الظلام، تطبق جفنها على الظلام

فتجد نفسها في فراش قريب من حضن الأم، الأم التي تبكي من فرط التأثر ولا تجد غير ترديد هذا السؤال:

. من الذي فعل بك هذا يا ليلى؟!

ليلى تريد أن تقول لأمها:

. ولكنهم يا أمي قتلوا أختي. أختي التي كانت معك في الشارع! إنني الآن أعرف كيف ولماذا ماتت؟

لكن صوتها يبقى حبيساً.. لا تستطيع النطق. تريد ان تقول لأمها أنها تعيش مع الجثث:

. أنا جثة وأختي جثة و...

تريد أن تصرخ... وتصرخ لكنها تجد نفسها في الظلام، تنام على الاسمنت البارد وقد تصلب ظهرها من فرط الألم!

تواصل البكاء بصمت وتحاول أن تغسل وجهها بدمعة ظنتها من أمها... وقد نزلت عليها في الحلم!



. ماذا كنت تتمنين أن تفعلي عند خروجك من السجن؟

. كنت أتمنى لو أسير في شارع الرشيد ورذاذ المطر يغطي الوجوه ورائحة التراب في الأرض، وصديقات طفولتي يسبقنني وأنا أحاول اللحاق بهن وأنا في المعطف الأخضر!

ثم تصمت وتواصل:

. نعم.. أعرف لماذا المعطف الأخضر ورذاذ المطر.

لقد رأيت هذا من قبل. كنت في السجن في الشمال، ومن شباك ما، من فتحة ما كان المطر ينزل على الأرض، والعائلات تدخل إلى كنيسة عتيقة مجاورة للسجن.. والأمهات والأطفال في الملابس الزاهية وثمة بنت في معطف أخضر أكاد أقسم أنها رأتني رغم أن لا شيء يمكن رؤيته من الخارج!



خلال الشهرين كان التعذيب يتم بشكل يومي.. باستثناء الأيام التي كان يحددها الطبيب:

. إذا أردتموها حية فاتركوها غداً!

هكذا كان يقول الطبيب عندما تكون ليلى في الإغماء.

في الأوقات العادية، والأوقات التي لا يكون فيها تعذيب تتشابه الأشياء بشكل جنوني: ساعات اليوم كلها تقضيها السجينة في الظلام في زنزانة صممت كي لا تستطيع النوم فيها بشكل طبيعي:

ينبغي ثني الظهر أو الساقين عند النوم.. كل شيء هنا في ظلام.. وفي غاية القسوة. حتى الهواء كان جارحاً!



. سنتمتر أو أقل كان ارتفاع الباب عن الأرض.

هذه الفتحة كانت هي صلتي الوحيدة خارج الظلام والزنزانة، ومنها أخمن أن الوقت ليلا أو نهارا، لكن هذه النافذة الوحيدة كانت تنقلب إلى أداة تعذيب حين تحمل الهواء البارد بقسوة إلى الضلوع!

كان الهواء يبدو مثل سكاكين قاسية... ولكنها غير مرئية.

عندما سألتها إن كانت قد عرفت شيئاً عما يحصل في الخارج طيلة هذين الشهرين، كنت أعرف أنني أقول أي كلام لمداراة الإحراج الذي يصيبني وأنا أستمع لقصص الموت والرعب، لكن السيدة ليلى لم تستخف بالسؤال. صمتت قليلاً ثم قالت:

. نعم... مرة عرفت ما يحصل في الخارج. لكنه بدا لي وكأنه خارج الأرض، لا خارج الزنزانة والسجن!

عندما أفقت من غيبوبتي المعتادة بعد التعذيب سمعت صوت أوراق عند قدمي، تلمستها فبدت لي صفحات من مجلة. وقد بقيت طيلة الظلام أخمن اسم المجلة، لم أستطع إلى أن فتح الباب عند موعد

تقديم الطعام فعرفت ما بين يدي: صفحات مهترئة ومتسخة من مجلة «ألف باء» ما الذي أتى بها إلى هنا؟

لا أدري، لكن ربما يكون الهواء هو الذي حملها إلى زنزانتي التي كانت تبقى مفتوحة عندما يقتادوني إلى التحقيق. وفي كل وجبة كنت أقرأ بضعة سطور فيبدو لي الورق وتبدو الكتابة في غاية الغرابة.

دونما سبب أسألها إن كانت تتذكر ما قرأته.

تجيب بحماسة:

. أتذكر بالطبع، لقد قرأت شيئاً عن معرض بغداد الدولي.. وبعض الشكاوى من ارتفاع الأسعار، أسعار الزهور تحديداً! وكان أصحاب المحلات يعتذرون بأن الزهور تكلف غالياً لأنها تصل بالطائرة من خارج العراق!

وأتذكر حديث فنانات عربيات عن القادسية وكانت تلك الصفحات أو السطور القليلة التي قرأتها قاسية عليّ مثل التعذيب وأكثر!

ثمة في الخارج من يهتم بأسعار الزهور المستوردة ومواعيد الدخول إلى معرض بغداد الدولي، ورأي الفنانات العربيات بالقادسية، بينما في الزنازين الممتدة تحت الأرض.. أرض بغداد، تتعفن أجساد نساء ورجال وأطفال وتنتهك أرواح وكرامات ويبث الرعب والبرد والقسوة حول الإنسان السجين كابوس العزلة.

أثمة عدالة في هذا؟

من أجل ماذا يتعذب السجين والسجينة؟ ولأي هدف تتحرك الوحوش وتتصرف بهذه الضراوة؟

أيستحق شيء تحت الأرض وفوقها كل هذا العذاب؟

أنا التي أتعذب يومياً وأكاد لا أميز بين الغيبوبة واليقظة يقول لي كل من يعذبني

أنني محظوظة لأنني لم أر شيئاً بعد!
فماذا عن الذي تعرض له غيري؟ ومن أجل أي شيء؟!
. ولماذا صمدت إذن؟ من أجل أي شيء رفضت التعاون معهم؟
. حسناً كنت أنظر للأمر من هذه الزاوية: أي تعاون معهم وخضوع لطلباتهم لن يعني إلا أمراً واحداً:
هو أن أضع بين أيديهم امرأة أو رجلاً!
لن أكون أنا من يفعل هذا، على الأقل بعد أن عرفت ما الذي يحصل لمن يقع بين أيديهم!



قالت السيدة ليلى:
. لا يمكن أن أنقل لك أو لقارئك ما حدث معي طيلة أكثر من شهرين بالتفصيل فيه.. ألا يكفي أن تعرف أنهم كانوا يجرونني من الزنزانة إلى غرفة التحقيق والتعذيب كل ليلة؟ وأنهم كانوا يستخدمون في التعذيب كل ما يخطر في البال: هراوات . كهرباء . فلقة . سجائر.. كلام بذيء . عصي مكهربة؟
لم يكونوا يتوقفون عن تعذيبي إلا بعد أن يؤكد لهم الطبيب الجلاد، أن إغمائي حقيقي وليس مفتعلاً!
لم أعد أنظر إلى جسدي كأنه أمر يخصني.. في الحقيقة لقد اعتبرته أداة لتعذيبي طيلة اليوم، ولطالما تمنيت لو أنهم يقطعون يدي أو رجلي أو أي جزء يستمر فيه الألم بعد تعرضه للتعذيب!
لم أتمن خلاصاً من شيء مثلما تمنيت الخلاص من رأسي، كان يؤلمني بشكل رهيب إنه يؤلمني الآن وأنا أحدثك.. لم أشعر مرة أنه هدأ وكف عن الألم أو تذكيري بما يسبب الألم.
إذا كنت مصراً نعم... أستطيع أن أحدثك عن آخر جلسة تعذيب تعرضت لها في مديرية أمن بغداد وستعرف لماذا كانت

هـذه جلسـة التعذيـب الأخـيرة.



لـن تحتـاج لبدايـة فصـل جديـد كـي تتحـدث عـن آخـر جلسـة تعذيـب فهـي كانـت مثـل سـواها:
جاءوا وجروني وعذبوني وأغمي علي مثل كـل مـرة.
كنـت مرهقـة تمامـاً، لم أسـتطع الوقـوف علـى قدمـي حـين أخرجـني جـلادان مـن الزنزانـة، تهاويـت فجرانـي قليـلاً، ولمسـافة أخـرى مـن الطريـق الفاصـل بـين الزنزانـة وغرفـة التعذيـب حملانـي قليلاً، ثم ألقيـا بي علـى كرسـي في الغرفـة، نظرت إلى مـا حولي فعرفـت الخطـوات اللاحقـة:
سـيدخل بعـد قليـل ضابـط التحقيـق وسيسـألني إن كنـت قـد وجـدت مـا أعـترف بـه وسـأجيب بالنفـي أو أطلـب اتهامـا محـدداً حتـى أعـرف كيـف أنفيـه، وسـيرد علـي بالضـرب والشـتيمة ويشـير إلى الجلاديـن بأن يباشـرا الضـرب و...
دخـل ضابـط التحقيـق وسـط مظاهـر اسـتعداد توفـر لـه الرهبـة المناسـبة، إذ وعلـى أقدامـه تحـرك الجـلادان بسـرعة وحـركا شـيئاً مـا واتخـذا وضـع الاسـتعداد، ثـم أديـا التحيـة بطريقـة لم تتبينهـا السـيدة ليلـى، لكنهـا شـعرت بانزعـاج واشـمئزاز مـن رائحـة الضابـط. كان يبـدو كمـا لـو أنـه أغـرق نفسـه بالعطـر الـذي بـدا عليـه رخيصـاً ومبتـذلاً رغـم أنـه كان مـن أغلـى الأنـواع!
لم يجلـس مباشـرة خلـف الطاولـة، وبـدا عليـه نـوع كريـه مـن الرضـا عـن النفـس وكأنـه يريـد إعـلان هـذا الرضـا بأيـة طريقـة.

كانـت ابتسـامته مثـل جـرح متقيـح، وكان يـروح ويجـيء أمـام الأسـيرة.
فجـأة توقـف أمامهـا واتسـعت ابتسـامته

المتقيحة، ونظر إلى ملابسه وكأنه يدعوها إلى أن تنظر إليه:

كم هو نظيف وحليق وكم ملابسه أنيقة! ثم زاد على ذلك بأن أمسك بمعصمه وأبرز ساعة ذهبية اللون بدا أنه يريد المباهاة بها وحدها بعد أن خلع خاتمه الثقيل ووضعه على الطاولة.

قال:

. أتدرين؟ هذه الساعة هدية من السيد العام (مدير الأمن العام).. لا أحد يحصل عليها كل يوم. ألا تقولين لي مبروك؟

لم يكن واضحاً لها أو للجلادين أمام من كان يريد المباهاة بساعته الجديدة بالفعل، لكنه أضاف:

. لم يخرج أحد من يدي إلا معترفاً أو ميتاً! وبصراحة فقد حصلت على هذا التكريم بسبب الاعترافات التي حصلت عليها!

ثم التفت إلى أحد الجلادين وقال له:

. ليدخل كاتب التحقيق.

والتفت إليها:

. صدقيني لن يلومك أحد إذا اعترفت لـ «أبو قيس» لا يوجد حيّ مرّ من بين يدي ولم يعترف.. الكل يعرف هذا!

شعرت السجينة ليلى ببرودة في أطرافها وسرت قشعريرة مخيفة في كل انحاء جسدها وأرادت أن تقول شيئاً، لكن ريقها جف ولم تجد قدرة على تحريك فكها.

دخل كاتب التحقيق وأخذ مكانه عند الطاولة وقبل أن يصبح جاهزاً للكتابة قال له الضابط:

. اكتب اعترافات الآنسة

عرفت الآنسة ليلى أنها المقصودة بهذا. فقالت بصوت واهن:

. بماذا أعترف؟ أنني لا أعرف تهمتي با لضبط...

مد يده إلى الطاولة وأمسك بالخاتم الذهبي الكبير وقلّبه قليلاً قبل أن يضعه في بنصر يده اليمنى وهو يقول بهدوء قاتل:

. هذه مشكلتك يا آنسة لن أرغمك على الاعتراف بشيء، اختاري أنت تهمتك وحددي أنت اعترافاتك هل يرضيك هذا !؟
كان يقترب منها وكانت رائحته تدفعها إلى المزيد من الرغبة في التقيؤ!
عندما صار بقربها تماماً أرادت أن تقف، لكنه وضع يده على كتفها وقال لها:
. لا تتحركي ... ها.. ماذا قلت!؟
انحنى برأسه عليها وكانت يده اليمنى التي وضع فيها الخاتم تمسد شاربه اللماع بانتشاء كامل.. أحست الآن أن رائحته تخنقها تماماً. بدا لها وكأنه يتعمد أن يشعرها بكمية العطر التي صبها على وجهه.
. لو أنه أبقى وجهه قريباً مني لوقت أطول لكنت ذكرت له أي شيء يريده، لكنه ابتعد عني فجأة وقال بتقزز:
. إن رائحتك كريهة جداً!
شعرت بالإهانة، تضيف السيدة ليلى، رغم أن رائحتي كانت كريهة فعلاً لكن ماذا عن رائحته التي كادت تدفعني للانهيار؟
تضحك السيدة ليلى قليلاً وتقول:
. هل تصدق هذا؟ وهل كان يدرك هو إن الاقتراب من عطره الثمين والكريه كان جديراً بدفعي إلى الانهيار؟
على أية حال ربما كنت أبالغ بهدف التعبير عن حقيقية مشاعري في تلك اللحظات.
توقف الضابط في منتصف الغرفة والتفت بسرعة وقال بطريقة ممثل بائس:
. ها؟ هل ستعترفين؟ ستغتسلين وسأهتم بك مثل اهتمامي بأختي، سآخذك إلى بيتي وستكونين عمة لابنتي منى!
قالت في داخلها:
يا إلهي إنهم لا يتعبون من البحث عن عمة لابنتهم منى!
جلس على الكرسي ثم، وأمام صمتها، نهض بسرعة فسقط الكرسي من ورائه

فاعتبر أنها مسؤولة، هذا على الأقل ما استنتجته ليلى عندما رأته يتقدم إليها بكل غضب ويصفعها بقوة وهو يصرخ:
. أتعرفين من الذي تعاندينه؟ هيا.. شوفوا شغلكم!
قالها وهو ينظف يديه من الصفعة فيما كان الجلادان يهجمان عليها ويضربان بقسوة وبشكل عشوائي كما لو أنهما استعارا غضب سيدهما أو أرادا التعبير أمامه عن غضبهما لأجله.
وكأن ليلى توشك أن تفقد صوتها، أو لكأنها أدركت أن من المعيب أن تتلقى هذا السيل من الأذى والوحشية وهي صامتة، فأخذت تصرخ بوجوههم بقوة:
. قتلة.. وحوش!
لم تعد تهتم باتقاء الضربات، فالضربات ذاتها فقدت أي اتجاه لها.. كل شيء أخذ طابعاً عشوائياً من فرط الوحشية، كان الضرب يتم بعصا غليظة وكيبل، وبسبب ما، ربما بمعجزة ما، تأخر سقوط وانهيار ليلى على الأرض، فشعر الضابط بالغضب واتجه لها، وعندما صار قريباً منها أفسح الجلادان له المجال كي يحسن تسديد ضرباته فانهال عليها صفعاً ولكماً، وحين استدار جسدها من قوة إحدى الضربات شعرت بضربة أخرى تعاجلها على أذنها من الخلف!
احترقت من الألم وأطلقت كل صراخ الكون في صرخة التألم، وانهارت على الأرض.
لم يهدأ الوحش.. كان يتصرف وكأنه يصفي حساباً شخصياً معها.. صرخ بمخلوقاته اللاهثة:
. هاتوها إلى هنا!
وضعوها على الكرسي، سمعته يقول: كهرباء... لكنها شعرت به يضرب ويضرب ولم تكن تتمنى هذه المرة أن يغمى عليها. كانت في داخلها تتمنى أن تبقى يقظة

وأن تصرخ لكنها كانت تغيب وتغيب عن هذا المشهد فيما مناطق الألم في جسدها تتسع، وتتسع!



بعد قليل سيعتنون بها.
جاء الطبيب.. واستخدم أكثر من إبرة لبث الحياة فيها وإيقاظها من غيبوبتها لكنها لم تتحرك. كانوا بانتظار نتائج الإبرة علها تستيقظ حين تساءل الضابط:
. ألا يمكن أن تكون كاذبة؟ إنني أشعر أنها تتصنع الإغماء.
قال الطبيب ببرود:
. لا.. إنها في حالة إغماء عميقة، يبدو أنك لن تستطيع المواصلة معها اليوم!
أراد الضابط إنهاء المهمة فنادى على الجلادين كي يحملاها، قال الطبيب:
. دعنا نتأكد إن كانت ستعيش!
اقترب منها ورش من بخاخ غازاً في أنفها، فانتفضت قليلاً ثم عادت إلى الغيبوبة، لكن الطبيب أعاد المحاولة، عندها استيقظت:
. لم أر شيئاً بوضوح كاف. كانت الدنيا تدور وكنت أتمنىً أن أموت أو أن يغمى عليّ لكن الرائحة النفاذة كانت قوية، وسمعت الطبيب يقول:
. أعطوها كأساً من الماء وآخر من اللبن.
ثم كتب يطلب لي بعض الأدوية المقوية!
وفي تلك الليلة لم تضرب ليلى على الحائط كي تطمئن سجينات الانفرادي إنها مازالت تعيش.. لقد مضت في النوم أو الغيبوبة، هي نفسها لا تدري في أيهما مضت؟
لكنها في اليوم التالي استيقظت تحت تأثير آلام الصداع. الصداع الأقسى والأكثر غرابة في عمق الألم.
وقبل أن تستطيع التحرك كانت قد تقيأت على ملابسها!
ثمة الظلمة، والألم، وعدم القدرة على تبين

حقيقة ما بها..
أرادت أن تتحرك فلم تستطع.. أرادت أن تصرخ، لم يكن هناك صوت رغم رغبتها في الصراخ.. وللحظات أدركت أنها في الكابوس.
هذا ما يحصل عندما تكون تحت تأثير كابوس:
تصرخ فلا صوت وتريد التحرك فلا شيء يتحرك.

في داخلها... هناك في الروح الأخرى، الروح التي تراقب الألم وتتوجس الخطر.. شعرت أن شيئاً ما قد تبدل وأن الكابوس هذه المرة سيكون مديداً... وتذكرت دونما سبب واضح، أنها تلقت ضربة هي الأعنف على أذنها اليمنى.
ترى... كيف يمضي الوقت لحين انتهاء الكابوس. الكابوس الذي اعتادته؟
أرادت أن تتذكر ما الذي كانت تفعله في الكوابيس السابقة كي تصحو؟ فلم تتذكر غير أنها كانت تحاول الصراخ والحركة.. ودقيقة إثر دقيقة.. ساعة إثر أخرى وهي تحاول الحركة والصراخ لكن الكابوس مقيم.



في الباب كانت الشتائم تنهال على الأسيرة:
. افتحي الباب يا بنت الكلب!
كان الشرطي يدفع الباب إلى الداخل فيصطدم بكتلة من اللحم البشري الصامت. يصطدم بجسد ليلى التي باتت عاجزة عن الحركة والصراخ وهي تسمع الشتائم الموجهة إليها!
جاء الشرطي بآخرين استطاعوا إخراج جسد ليلى من تلك الظلمة وذلك الصمت. وكانت هي، الجسد المكوم بصمت عند أقدام الجلادين تحاول تبين حقيقة الكابوس.
. ليس كابوساً إذن؟

. كيف تأكدت أنه ليس كابوساً؟
الكوابيس أرحم لأنها تنتهي... أما حالتي في تلك اللحظة فكانت بلا نهاية كانت أسوأ من الكابوس!
تذكرت، تضيف السيدة ليلى، في تلك اللحظة أنني أخبرت الطبيب في غرفة التعذيب في الليلة السابقة أن صداعي كان شديداً، وأنني لا أستطيع الرؤية جيداً بعيني اليسرى.. الآن أنا أشعر أن لا شيء طبيعي في وضعي:
لساني ثقيل وثمة خدر في شفتي، واللعاب يسيل من فمي دون توقف وأنا عاجزة عن تحريك يدي ورجلي اليسرى بشكل خاص. ركضوا إلى المحقق وجاء بسرعة، وعندما رآها سألها بهلع مبالغ فيه:
. من فعل بك هذا؟!
ثم أنه أمر لها بسيارة إسعاف، جاءت السيارة ووضعوها على النقالة، ثم سارت السيارة قليلاً لدقيقتين أو ثلاث، ثم توقفت أمام مستشفى الأمن العامة. نقلوها إلى غرفة خاصة، وهناك كان الطبيب النحيف يمسك بقدمها ويضرب بالشاكوش ويخزها بمخرز، وأخذ يحك القدم من الباطن ثم نظر إلى فمها وقد مال كثيراً وسأل:
. أهو بهذا الشكل من البداية؟
قيل له: لا!
فقال خذوها إلى مستشفى الكندي. عندها جلطة!



طيلة الطريق إلى مستشفى الكندي، القريب من كراج النهضة والأكثر ازدحاماً في سنوات الحرب بالجنود الذاهبين إلى الخنادق ليشبعوا جوع الحرب إلى اجساد الشباب.
كانت ليلى في الغيبوبة تتذكر الطرق المؤدية إلى كراج النهضة، إلى ساحة النهضة، إلى مستشفى الكندي فتتذكر

تلك الحياة الضاجة والطرق المكتظة بالبشر و.. كان يوجع قلبها أن لا أحد يدري بما يجري لنا تحت الأرض!
صوت الإسعاف يشق الطريق وصوت الشرطي المحقق يحاول أن يكون واضحاً ومحدداً ومخيفاً في أذن ليلى:
. تذكري:
أي حديث عن التعذيب عقوبته الإعدام!
كان الجنود خارج سيارة الإسعاف يذهبون إلى الحرب، وعيون الأمهات كانت تلاحق الأبناء بالأيدي المرفوعة بالدعاء في أن يعودوا سالمين من الحرب.

خارج سيارة الإسعاف، كان القلق والخوف والأفراح الصغيرة والطموحات واللهاث وحيرة الشيوخ من إيقاع هذه الأيام وانقلابات الدنيا ورغبة الشباب في الخلاص، أي خلاص، من شيء ما لا أحد يعرفه على وجه اليقين.
كانت الحياة في الخارج، في شوارع بغداد مغطاة بالصور والشعارات، وصورة القائد تطالعك أينما سرت، وكل شيء يمكن أن يتحدث سراً أو علناً عن أي شيء سوى أن أحداً لم يكن يعرف أن سيارة الإسعاف التي شقت دربها في ذلك الزحام باتجاه المستشفى كانت تحمل امرأة فقدت القدرة على النطق والحركة من فرط القسوة والوحشية في التعذيب، وثمة شرطي يهمس في أذنها مهدداً:
. ثمن الحقيقة هو الإعدام!
قبل قليل، قبل يوم ويومين وطيلة الأيام السابقة كانوا يقولون لها:
. إن لم تقولي الحقيقة ستموتين!
اليوم يقولون:
. إن قلت الحقيقة ستعدمين!
تحتاج أيها القارئ، أن تكون عراقياً، وضحية، حتى تستطيع فهم هذا المنطق والتعايش معه!

ليلى أدركت هذا.. إنها أساساً لم تكن راغبة في الحديث عما حل بها. فما فائدة أن تشكو لطبيب هو في أفضل الحالات، عاجز عن حمايتها؟



. لماذا لم تدقي الباب عندما شعرت بالخدر وبداية الشلل؟

. لم أجد في نفسي رغبة لطلب المساعدة منهم.. لقد عذبوني كل يوم حتى أصل إلى هذه الحالة، فلماذا أشكو لهم أو أطلب مساعدتهم؟



هل زحف الشلل إلى ليلى واستوطن ذلك الجسد المرهق رغماً عنها؟ أم أن ليلى هي التي استدعته في لحظة يأس كي يأخذها بعيداً عن العذاب اليومي!؟

لم تعد تتذكر، رغم يقينها أن جسد المرء لا ينهار أو يتصلب دون إرادة أو استسلام ما من صاحبه.

ثمة تعب في زاوية من الروح هو الذي يغري الجسد بالانهيار، تماماً مثلما التحدي الكامن في الروح هو الذي يدفع الجسد الواهن للتصلب وحماية صاحبه من الانهيار.

لعلها كانت في تلك اللحظة قد أعلنت رغبتها في الانسحاب من هذا المشهد ودورها فيه:

مشهد الضحية التي تعذب يومياً وتهان في كل لحظة من وجودها في الأسر.

لكن إلى أين تستطيع الانتقال من هذا المشهد؟ إنه أحد ذرى هذه الدراما الجنونية، ليس ثمة من بعد سوى التحرك خطوة واحدة باتجاه النهاية... باتجاه الموت!

الموت؟

ما هو هذا الشيء؟ ومن قال انه سيء؟

كم مرة سألت ليلى نفسها هذا السؤال؟

كم مرة قارنت وجود الطبيب في حفلات التعذيب ومحاولته تضميد جراحها وإعادتها للحياة حتى يستمر التعذيب؟ كم مرة قارنت هذا بفكرة وجود الموت وأجابت مثل طفلة لا تعي من العالم غير البداهة:

. لو كان الموت سيئاً لدفعوني إليه بسرعة!

التعذيب هو الأسوأ لكن المشكلة تكمن في هذه الأغوار العميقة في النفس البشرية.. لقد جاء الطبيب في مستشفى الكندي وسأل ليلى:

. هل ان ما حصل معك كان نتيجة تعذيب؟

فخافت أن ترد بالإيجاب، اختارت الصمت كي لا تكون في مواجهة الإعدام.. هي نفسها تقول:

. لا أدري لماذا لبيت طلبهم بالصمت؟ هل خفت من الإعدام حقاً أم من التعذيب؟ أم أنني فقط كنت يائسة ولا أرى أية جدوى من البوح والشكوى؟

وأنا أكتب اكتشفت سخافة سؤالي:

. حقاً لماذا لم تخبريهم في المستشفى أنك تعرضت للجلطة والشلل بسبب التعذيب؟

السخافة تنبع من كون المأساة والفضيحة قد بلغت هذا الحد من الوضوح بجسد بشرى ممزق ومشلول وآثار الوحوش واضحة على كل جزء منه، ويأتي السؤال ليقول أن ما هو مطلوب الآن أكثر من التضميد والمعالجة... أكثر من معاقبة القتلة، هو أن تصرّح الضحية بأنها... ضحية وأنها تتألم!

أيام المستشفى كانت أيام متعة وراحة بكل معنى الكلمة بالنسبة لسجينة عانت مثل ليلى بالطبع، كان في الباب شرطي أمن بملابس مدنية. كل يوم كان الشرطي يتبدل ويترك مكانه لآخر، يتم تعريفه على السجينة:

. لو هربت أو انتحرت أو حصل لها أي شيء فأنت المسؤول!

هكذا كان السابق يقول للشرطي اللاحق أحياناً أمام ليلى، ولم تكن تعرف إن كان هذا تحذيراً لها من الهرب أم هو للشرطي؟ لكن ما هو أكيد أنهم رفعوا من حولها كل ما يمكن أن يساعد على الانتحار.. وشمل هذا الآلات الجارحة من السكاكين إلى الكؤوس الزجاجية. ثم أغلقوا الشبابيك المحيطة بها، رغم أنها لم تكن وحدها في الصالة.

كانت ثمة مريضات أخريات لم يعرفن في البداية سبب هذه العناية الغريبة بالمريضة الغارقة في الصمت والحزن.

فيما بعد عرف الجميع من هي ليلى، ولماذا هي هنا؟

قال لها الطبيب مشجعاً:

. أنت بطلة.. لا تخافي منهم!

طبيب آخر قال لها بصوت عال:

. لا تديرين بال.. اعتبري المستشفى بيتك... أنت رفعة رأس لكل آدمي!

قال لها بعض الأطباء:

. نستطيع تمديد إقامتك في المستشفى قدر ما تشائين ..

لكنها اكتفت بستة أسابيع من العلاج والراحة.



لم أجد مبرراً لبقائي فترة أطول.. لقد استنفذت هنا كل شيء:

المشاعر الطيبة ونصائح الأمهات والعلاج وحتى البحث عن إمكانيات الهرب!

فيما بعد فكرت أنني ببقائي في المستشفى أضيق الخناق على الآخرين:

المرضى والأطباء.

أهم الأشياء التي كنت أفكر بها وأكثرها رعباً هو:

هل سأعود إلى التعذيب أم ستتم إحالتي إلى المحكمة؟

فكرة التعذيب كانت تصيبني بالجنون. لكن انتظار التعذيب كان مرعباً وجنونياً أكثر، لهذا اخترت أن أعود بسرعة كي أعرف ما الذي ينتظرني حتى أتخلص منه مرة واحدة.
- هل قلت لك أنني شاهدت قريبتي في المستشفى؟!
هي أكثر من قريبة في الحقيقة. كانت لي الأخت والصديقة.. رأيتها مرة واحدة وطلبت منها أن لا تعود إلى المستشفى كي لا يمسكوا بها وتتعرض لمصير مثل مصيري!



انتبهت الممرضة الجديدة إلى أن مريضة تطيل النظر إليها، شعرت أن وجهها ليس غريباً وأن شيئاً ما يشدها إليها، أنهت جولتها في الصالة المجاورة واقتربت من ذلك الوجه المتعب.
فجأة أشرق وجه الممرضة بالبهجة وقالت:
. أستاذة ليلى؟
أشارت ليلى بيدها كي تهدأ... تقدمت الممرضة وهي تقول بصوت منخفض ولكن باستعجال:
. لم... لم ... أعرفك... هل عرفتيني؟
أنا سعاد كنت طالبة عندك في الجامعة! (في سنوات الحرب ألزمت خريجات الجامعة بالخدمة كممرضات لمدة عام كشرط لقبولهن في الوظائف العامة، وهذا هو مبرر وجود خريجة القانون في المستشفى) .
قالت ليلى للممرضة بهدوء:
. امسكي النبض، أو قومي بأي عمل طبي لي..
ثم أضافت عندما اقتربت منها:
. أنا سجينة وتحت المراقبة... مراقبة الأمن! ومثل المصعوقة تركت الممرضة يد ليلى وابتعدت لخطوتين ثم أخذت تتلفت! وفجأة شعرت بالخجل ولم تعرف كيف

تداري موقفها، فاستمرت في التراجع إلى آخر السرير، تظاهرت وكأنها مهتمة بالوصول إلى «الطبلة» حيث تقرير الطبيب عن حالة المريضة.

تشاغلت الممرضة بقراءة التقرير الطبي فيما كانت تتأكد من حجم المراقبة ثم تقدمت من المريضة وكأنها أرادت الاعتذار. قالت بصدق وتوسل:

ـ اطلبي مني أية خدمة.. أي شيء ولا يهمك ست ليلى!

لم تستطيع المريضة وقد رأت خوف الممرضة غير أن تقول:

ـ لا شيء... لست بحاجة لشيء.. شكراً!

كانت الممرضة في غاية الانفعال والاضطراب.. لم تعرف ما يجب أن يقال:

ـ ست ليلى أنا آسفة جداً لقد خفت واضطربت وأنا أشعر بالعار لهذا. ست ليلى لن أحترم نفسي طيلة حياتي إذا لم أخدمك بأية طريقة!

شعرت ليلى انها إن واصلت الصمت فإن تلميذتها ستواصل الاعتذار وتأنيبِ نفسها، وقد ينتبه الشرطي ويكتب شيئاً ما عن الممرضة وتؤخذ إلى هناك وتضرب وتعذب لذلك قاطعتها بالقول:

ـ سأطلب منك خدمة..

ودون تفكير أملت عليها رقم هاتف وطلبت منها الاتصال بقريبتها عليه:

إنها أكثر من أخت لي:

لا تتحدثي مع أحد غيرها، قولي لها أين أنا وإذا أرادت المجيء فلتكن في غاية الحذر.. في اليوم التالي جاءت.. بقيت هناك لوقت قصير ثم خرجت وهي تكاد تنفجر من الإحساس بالعجز عن انتشال أختها من هذه المحنة، جاءت وكأنها تزور مريضة أخرى كي لا ينتبه لها رجال الأمن.

وتولت الممرضة سعاد تغطية الزيارة.. لكن المأساة أن الأخت لم تتعرف على أختها بسهولة!(السيدة ليلى قالت: تحدث عنها

بصفتها أختي).
ليس سهلاً أن تجد من تحب يساق إلى الموت والتعذيب أمامك، وأنت تضطر للتظاهر بعدم رؤية ذلك.
جاءت الأخت وانصرفت وكأنها لم تتعرف أو تلتقي أختها.
ترى.. أين يمكن وضع عذاب امرأتين كانتا في مثل هذا المشهد الكابوس؟!
كان ثمة ما ينشأ ويتراكم بصمت وعجز في تلك الصالة في المستشفى.
المريضة العجوز، التي كانت الأقرب في سريرها لسرير ليلى كانت لا تفهم كيف أن امرأة واحدة تنام بالقرب منها وفي غاية المرض يمكن أن تخيف الدولة والحكومة! كانت العجوز تبعث من الفاكهة والبسكويت ومن كل ما يأتيها من الأبناء والأقارب إلى المريضة الشابة الغارقة في صمت الحزن تعبيراً عن تعاطفها، لكنها كأم كبيرة لم تكن تستطيع الصمت:
. يمه شلج بهاي؟ هيّ الزلم مو خلصانه!
لكنها وإذ ترى شبح ابتسامة امتنان على وجه السيدة ليلى، كانت ترفع رأسها إلى أعلى وهي تردد:
. الله لا ينطيهم.. منين راضعين؟ من ديس الشيطان الرجيم؟
في هذا بعض التعويض عن الألم، قالت لي السيدة ليلى:
. كنت أرى تلك النظرات في أعين الزوار والزائرات وهم يتلقون همسات المرضى الذين كانوا يشيرون إلي بأعينهم فكنت أشعر بالارتياح والامتنان وأرى أن آلامي هناك لم تذهب عبثاً!
. أما كان يؤلمك ويحبطك... أنهم جميعاً: أطباء.. مرضى... زوار لم يمدوا لك يد المساعدة... لم يصرخوا في وجه الشرطي.. لم يسهلوا لك الهرب؟
. أحياناً.. نعم كنت أشعر بالألم وكنت أغضب وأقول:

ها هو العراق بأكمله.. ها هم البشر جميعاً يتجاهلون هذا العار.. عار أن امرأة وحيدة تعذب وتهان وتؤخذ إلى الموت على مرأى منهم، ولا أحد منهم يلتفت إليها أو يقول كلمة: لا!

. وكيف كنت تخرجين نفسك من هذا الإحساس؟

. لم يكن إحساسا أصيلاً أو عميقاً في نفسي لقد كان عابراً وكان يعتريني في اللحظات المظلمة من سجني هناك، ولهذا كان يكفي أن أتخيل أي واحد في المستشفى، أخي أو أختي، من الأقارب أو الأصدقاء، حتى أشعر بالخوف عليهم من أن يصرخوا أو يقولوا شيئاً يمكن أن يوصلهم إلى المصير الذي صرت فيه!

لعل السيدة ليلى شعرت في لحظات ما أنها تفتدي من تحب، من تعرف ومن لا تعرف، وبوجودها بين الجلادين بصمت ودون تحميل الآخرين أية منّة أو مسؤولية، وفي الحقيقة فإنها لم تكن تتعب كثيراً في إيجاد العذر لأحد... ما كان يتعبها أكثر من أي شيء آخر هو ذلك السؤال المرير:

. لماذا يفعلون هذا بي.. وبالآخرين؟ من يدفع هؤلاء إلى إبراز هذا القدر من الوحشية والقسوة ضد الرجال وضد النساء والأطفال؟



في صالة المرضى.. كانت المريضة المميزة تمنح الصالة التي هي فيها الكثير من التميز، وتملأ رؤوس المريضات والزوار بأسئلة ليست عابرة!

لكنها كانت تملأ بعض ليالي صالة المرضى، والمرضى، بكثير من الرعب: إنها الصرخات التي تنطلق في قلب الليل من هذا الجسد المتعب.

. ليلى في الكابوس!

تأتي الممرضة، أو تنهض مريضة من

فراشها وتوقظها:

. لا تخافي يا بنتي. كابوس وانتهى.

. وفي كابوس ما تمنيت لو امرأة لو ممرضة، تقرأ لي ذلك الدعاء الذي قرأته أم زينب لي في سجن «آلوكة»!

تشعر ليلى بالأسف:

. خطيّه... كلهن مريضات وكان صراخي يصحيّهن، لكن لم أشعر أن واحدة منهن كانت تتعمد أن يبدو عليها الانزعاج.. وفي مرات عديدة كان يخالجني شعور أنني الطفلة التي تنغص نوم أهلها بصراخ الليل!

في البداية كنت أقضي جزءاً من النهار وأنا أحاول الاعتذار عن صرخات الليل، لكنني في النهاية كففت عن هذا، فلا الاعتذار كان مجدياً ولا أحد في الحقيقة حاول أن يلومني.

سأكتب ما تبقى من هذه الصفحات على عجل ودون إيغال في التفاصيل، السبب في هذا أن السيدة ليلى تحدثت عن البقية باختصار.

قالت:

. لن يصدق قراؤك بقية التفاصيل.. أنا نفسي وقد رأيت وعانيت وتألمت لا أصدق الآن، إن شيئاً من ذلك حصل لي ولغيري في سجون النساء!

ألح عليها:

. يجب أن تتكلمي أولاً... دون كلامك وكلام سواك لا أحد يستطيع التمييز أو تحديد ما يصدق وما لا يصدق.
قالت السيدة ليلى:
. قبل أسابيع كنت أسرد على مسامع الطبيب النفسي بعض تفاصيل ما حصل معي في تلك الأقبية المظلمة فكان بين فترة وأخرى يقاطعني بالسؤال :
. وهل كان هذا الكابوس يتكرر معك كثيراً؟
فأرد:
. ليس كابوساً.. إنني أروي لك ما حصل معي بالضبط!



بعد المستشفى تم نقل السجينة ليلى إلى مكان آخر تمهيداً لنقلها إلى محكمة الثورة، وبين المستشفى ومحكمة الثورة تتالت فصول المأساة:
رأيت ما هو أشق علي من التعذيب!
في موقف سجن النساء الذي نقلت إليه، وهو تابع لمديرية أمن بغداد، عشت عدة شهور تحت الأرض بكل معنى الكلمة، فلكي تصل إلى بوابة السجن لابد من النزول (١٢) درجة تحت الأرض.. لابد من الإيغال في الظلام والروائح الكريهة!
في صالة صغيرة، لا أعرف لكم من الأشخاص تتسع حشرنا فوق بعضنا في الظلمة، كان عددنا يزيد أحياناً على (٣٥٠) امرأة، ولم يكن متاحا لنا بهذا العدد الكبير أن ننام في وقت النوم، كنا نتناوب على النوم بسبب ضيق المكان، وكان المكان يمتلئ بالأوساخ وقد نمنا على تلك الأوساخ!

في ذلك المكان الكريه شعرت أنهم يريدون القضاء على ما تبقى من آدميتنا وتحويلنا إلى مخلوقات تأكل وتنام في مكان ليتني أستطيع تشبيهه بالزريبة!
وكانت القصص تتلاحق، وتختلط هموم

السجينات السياسيات بهموم السجينات لأسباب اقتصادية وغيرها.
(قبل نقل السجينات السياسيات إلى المحكمة كن يؤخذن إلى سجن النساء المتهمات بالدعارة في الزعفرانية إمعانا في الإذلال)!
في تلك العلبة تتزاحم الأسماء والقصص: بديعة الدامرجي، حمدية دراغ، سليمة ملبس أم نوار، أم سيف، أمل، خالدة..
واحدة هي في السجن لأن زوجها بصق على صدام حسين مباشرة، وتولى صدام تعذيبه، وقتله وأمر بهدم داره وسجن أفراد عائلته. كان زوجها مسؤولاً كبيراً في الحزب والجيش لكنه استطاع وقد تيقن من موته، أن يبصق في وجه الطاغية!
واحدة أخرى مسجونة لأسباب اقتصادية، كانت من المقربات للعائلة الحاكمة وكانت تتساءل دائماً:
. «لماذا أنا هنا»؟
وتجيب:
لان سجودة أرادت هذا! (تصغير لاسم ساجدة خير الله زوجة صدام حسين)
لقد قلت لها:
- هل فعلت شيئاً لم تفعليه أنت؟
خالدة، المرأة النجفية رفضت أن تطلّق زوجها الهارب، فتم اقتيادها من سجن لآخر وعُذبت بمختلف الطرق لأنها لم تستطع تقديم إجابة مقنعة على سؤالهم الغريب:
. لماذا لا تطلبين الطلاق من زوجك غيابياً؟
واحدة أخرى كانت آثار الكلاب على جسدها.. لقد عذبوها بالكلاب البوليسية، وأخرى قالت أنهم كانوا يوقظونها من النوم على أصوات الكلاب، فتفاجأ أن زنزانتها الانفرادية قد تحولت إلى شاشة عرض لأحد أفلام الرعب الحقيقية:
ثمة فلم للكلاب البوليسية وهي تنهش أجساد نساء عراقيات، ويكون الصوت مرتفعاً حتى يغطي على صراخها وفجأة يتوقف

الفلم ويسود الظلام والصمت، إلاّ من أنين امرأة أرهقها الذعر(فيما بعد عذبت هذه المرأة بالكلاب البوليسية)!
تصمت السيدة ليلى، فأشعر أن الكلام يغدو نوعاً قاسياً من التعذيب، وفي الصمت أسمع أنين تلك المرأة المذعورة من الكلاب التي مازالت تنهش وتنهش!



في صباح أحد الأيام (وكلمة صباح تفقد معناها في تلك الأماكن) تم اقتياد السيدة ليلى إلى محكمة الثورة.
توقفت السيارة على جانب الطريق المؤدي إلى سجن أبو غريب، كانت هناك محكمة الثورة:
كابوس وأمل كل السجناء والسجينات! الكابوس لأن الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود. والأمل لأن الوصول إليها يعني في أحيان كثيرة توقف التعذيب.
المحكوم بالإعدام يذهب إلى خشبته مطمئناً أن لا شيء أقسى من الموت، والمحكوم بالمؤبد يكون مطمئناً لنهاية التعذيب!
في الصالة التي انتظرت فيها السيدة ليلى ساعات كانت عيون النساء والرجال تتحدث بصمت عن كل الرعب الأسود الذي عاشه كل من في الصالة على يد الجلاد.
لم يكن ثمة جدوى من أي حديث، كل واحد كان يعرف أن مصيره لا علاقة له بالمنطق أو بفكرة العدالة.. انه فقط ضحية في وضع أزلي وكانت السيدة ليلى تفكر:
. لقد رفضوا أن أوكل محامياً للدفاع عني فهل سيوافقون على أن أقوم بالدفاع عن نفسي؟

اتجهت الأنظار إلى الباب المؤدي إلى قاعة المحكمة... كان ثمة امرأة يصعب تقدير سنها تعثرت بعباءتها ثم نهضت وهي تقول:

. ألف الحمد لله والشكر. ألف الحمد لله والشكر!

ظن الجميع أنها حصلت على البراءة. فانتعشت الآمال وبدأت الأسئلة وكان رد المرأة التي فرحت كثيراً ثم بكت:

. حكموني بعشرين سنة سجن!

وأوضحت:

أنا فرحانة من أجل أطفالي لقد تركتهم في السجن، من لهم لو حصل لي شيء لا سمح الله؟!

انتعشت الآمال أكثر وبدأت الأسئلة:

. ما هي تهمتك؟

كان الكل يسأل كي يقارن تهمته ويقدر الحكم الذي ينتظره، لكن جوابها زاد الرعب إلى أقصى درجاته:

. إيواء زوجي في البيت!

ثم أوضحت:

. كان زوجي هارباً وعندما جاء إلينا لم أبلغ عنه الأمن، فداهموا البيت وأخذوا زوجي إلى مكان آخر وأنا وأطفالي إلى..

تصمت السيدة ليلى وتقول:

. هل يمكن تخيل حالتي وحالة الآخرين والأخريات ونحن نسمع بالحكم القاسي على هذه الجريمة الغريبة: إيواء الزوج؟! وفجأة تشعر السيدة ليلى بيد تعصر قلبها عندما فاجأت نفسها بهذا السؤال:

. وأنا... ما هي تهمتي؟!

دون معرفة التهمة لا يمكن التخمين والاستسلام لأمل أو كابوس..

وبسرعة تذكرت جلسات التعذيب والأسئلة (هل كانوا يسألون حقاً)؟ فوجدت أنهم كانوا يطلبون منها الاعتراف في كل سجن بتهمة مختلفة!

لقد سألوها أكثر من مرة عن أسباب رفضها الانتماء للحزب وها هي الآن تفكر:

. ترى كم سنة عقوبة من يرفض الانتماء للحزب؟!

قالت: مستحيل... لا يمكن أن أقاد للمحكمة

بهذه التهمة!

فكرت بكل حياتها وبكل ما يمكن أن يبدو جريمة فعلية، فلم تجد.. أرادت أن تطمئن، لكن الداخلين لقاعة المحكمة ما كانوا يعودون منها، ولم تكن تعرف السر، وفكرت أيضاً:

. ماذا سأفعل لو حكم علي بالإعدام؟ هل أتوسل أم أصرخ في وجوههم بأنهم قتلة؟ ماذا سأقول إذا حكموا علي بالسجن؟ هل أفرح هل أتظاهر بالحزن؟ هل..

اقشعر بدنها وسرت فيه برودة مخيفة.. لقد نادوا باسمها وها هم الجنود يقتادونها إلى قاعة المحكمة.

لم أشعر بالذل وامتهان الحياة قدر ما أحسست به وأنا أدخل قاعة المحكمة، هذا الإحساس دفعني لليأس، تقول السيدة ليلى، فالآن.. كل شيء يتعلق بكلمة واحدة يقولها رئيس المحكمة... هو الذي يقرر إن كنت أستحق الموت أو السجن!

تصمت ثم تضيف:

. الآن أتأمل حياتي ولا أدري إن كان علي أن أحترمها أم أعاملها باستهانة؟

لقد كانت في نهاية الأمر منّة من عواد البندر (هو رئيس محكمة الثورة وقتها) نظر إلي.. شتمني ثم أصدر حكمه:

. السجن لعشرين سنة!

. ماذا تتذكرين عن المحكمة... كيف جرت؟ من كان محاميك؟ وماذا قال الادعاء العام؟ لقد قضيت سنة تتعذبين قبل الوصول إليها.

. منذ اللحظة الأولى لدخولي المحكمة شعرت باليأس من فكرة الرحمة أو العدالة. كل من في المحكمة كان ضدي! كل من كان فيها عاملني بقسوة وبروح عدوانية. بنظره واحدة أدركت أن الجميع هنا ضدي سلفاً فأصبت بالإحباط.

وقف ممثل الادعاء، وقدم مرافعته عن

«المجرمة» ليلى..
وللحظات لم تدرك ليلى أنها المقصودة أو أن ما قاله الادعاء العام يمثل دليلاً قانونياً يقدم لمحكمة.
لقد اكتفى بالإنشاء والحديث بحقد عن «الحاقدين والأعداء» وطالب بإنزال أقصى العقوبات بهذه المجرمة الخطيرة ثم جلس.
وعندما أرادت أن تطلب حق الدفاع عن نفسها، صرخ بها عواد البندر:
. اخرسي يا مجرمة سيعميك الحقد... ليتقدم محامي المتهمة!
ومن بينهم وقف أحدهم، ودون أن يعرف بنفسه أو يتحدث مع المتهمة أخذ يقرأ من ورقة أمسكها بيديه:
. لما كانت قضيتها لا علاقة لها بالتجسس ولا علاقة لها بوجودها في تنظيم معادٍ، ولم تشارك في أعمال تخريبية فإنني أطلب لها الرأفة من سيادتكم! و انتهى كل شيء!

تقول السيدة ليلى:
. لم أدر ما أقول أو أفعل، فها أنا في مواجهة محام لا يعرف عني وعن تهمتي شيئاً، ومحكّمة لا علاقة لها بالقانون، وحاكم شتمني أكثر من مرة، وقرار حكم أكثر غرابة:
. السجن المؤبد ومصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة!
في تلك اللحظة فرحت تماماً، فرحت لدقيقة أو أكثر.. إنني أتذكر هذا جيداً، لقد رفعت أصابع يدي بعلامة النصر عندما دخلت إلى الصالة فسألوني بلهفة:
. براءة؟
. لا السجن المؤبد!

إنها لحظات اختلاط الضحك بالبكاء، الفرح بالحزن، المأساة بالمهزلة!
تقول السيدة ليلى:
. لمت نفسي كثيراً على ذلك الفرح الأهوج

إنها مهزلة لم تستغرق أكثر من ربع ساعة.. والمهزلة الأكبر أن الجميع: أعضاء المحكمة ورجال الأمن ومسؤولي السجن وحتى السجينات عاملوني على أساس أنني محظوظة! أفلم أفلت من حبل المشنقة بمعجزة وحظ عظيم؟

دمشق أوائل ١٩٩١

عند هذا الحد توقفت عن الكتابة قبل عامين تقريباً.

كانت الحرب قد بدأت وانشغالات الناس صارت أبعد ما تكون عن التأسي أو مجرد الاهتمام بمأساة شخصية تعرضت لها امرأة عراقية.

عناوين الصحف ونشرات الأخبار وتصريحات كبار السياسيين كانت تتحدث عن أمور كبيرة وخطيرة ومصيرية، كل يوم كان هناك أكثر من عنوان مثير لا يدع مجالاً للالتفات إلى مآسي الأفراد.

نامت هذه الأوراق مع غيرها من الأوراق المؤجلة.. العراقيون أنفسهم أوراق مؤجلة! قبل أيام كانت هذه الأوراق أمامي من جديد.

قرأتها بسرعة فوجدت أنها باهتة جداً. أعرف تماماً، وقبل أن أكتب، أن الكلمات ستكون باهتة، فأنا التقيت السيدة ليلى مرات عديدة، سمعت صوتها ورأيت دموعها وعرفت إيقاع كل كلمة قالتها.

عندما كنت أصغي إليها وهي تنطق بكلمات مثل: الرعب والخوف والفزع، أو عندما تقول صرخت أو شعرت بالنار تحت جلدي، أقول... عندما كنت أسمعها تقول تلك الكلمات كنت أعرف معناها الحقيقي لأنها هي من يتحدث عنها، هي التي مشت في درب الآلام، هي التي رأت وتعذبت، وهي التي بقيت تدرك معاني كلمات الألم أكثر منا!

وضعت الأوراق على الطاولة من جديد وانتظرت.. لم يورق الانتظار كلمات معبرة فدفعت بها إلى صديق وآخر وآخر، قرأوها وقالوا:

. رغم إحساسك أن لا كلمات يمكن أن ترقى إلى حقيقة الألم والشعور بالظلم، ينبغي الإعلان عن هذه المأساة، إن الصمت جريمة!

ثم إن سيدة عراقية قرأت الصفحات وكانت هي الأخرى قد دخلت السجن وعذبت ووضعت في زنزانة انفرادية وكل هذا بسبب تهمة محددة بكلمة واحدة:

لا شيء!

كتبت هذه السيدة تقول: نعم لقد كانت تهمتي لا شيء!

لكن الخطير في الأمر أن هذه السيدة وضعت في ورقة الملاحظات هذه الجملة المخيفة:

«الولادة في العراق هي حقاً أكبر كارثة»!

للكفر أشكال وأساليب متعددة، لكنني لم أعرف كفراً يشي باليأس والألم مثل هذه الصرخة!

ثمة المزيد من الصفحات البيضاء، وثمة المزيد والمزيد من الألم والعسف والإحساس بالظلم، وقصة السيدة ليلى تنتظر من يضع نهاية لها. لكن من يتجرأ على تخيل، مجرد تخيل، نهاية لقصة مثل قصتها؟

نحن الآن في أوائل العام ١٩٩٣ وأمامي هذه الأوراق التي هربت منها مدة عامين تقريباً. وضعت الآن دون تحديد، شريطاً بصوت السيدة ليلى.

لا يبدو صوتاً من عالمنا، انه يأتي من هناك... من قرون سحيقة ومن عصور موغلة في القدم، أشعر تماماً أن صوتها يأتي من زمن تحاول فيه الحيوانات تعلم القسوة والفتك من الإنسان!

لكن... أليس هذا هو ما يحصل الآن؟
أكثر الضحايا الذين التقيتهم كانوا يطرحون بشكل أو بآخر هذا السؤال:
. لماذا يفعلون بنا هذا!؟
أحد الشعراء قال لي :
. حتى وحوش الغابة تفتك ببعضها لأسباب تبدو مفهومة كلياً:
الجوع أو الدفاع عن النفس، لكن هذه الوحوش لم تكن تفتك بأبناء جنسها مهما كانت الحال.. لماذا يفتك الإنسان بأبناء جنسه؟
وتقول السيدة ليلى:
. لا تتخيل كم أنا خائفة على العراق وعلى الناس من هذا الجنس الغريب..
جنس الجلادين المحترفين!
لقد قضيت سنة بين توقيفي وتقديمي لمحكمة الثورة، وتنقلت في هذه السنة تحت الأرض وفوقها، وفي كل يوم كنت أسأل نفسي:
. من يستطيع مسخ الإنسان إلى وحش وكيف ولماذا؟!

إن عذاب الأسئلة أكثر ألماً من الضرب والتعذيب... هذه الوحوش تسير في الشارع وتتحكم بمصير الجنين وهو في بطن أمه! لابد من طريقة لإيقاف الوحوش عن قتل وانتهاك الإنسان!
إن الوحوش يتكاثرون والبشر يتناقصون! هذا مخيف وقاس، وما هو أكثر رعباً أن لا أحد يكترث، والنساء، مثل الرجال.. مثل الأطفال، يتعرضن هناك الآن.. في هذه اللحظة تماماً لأبشع ما يخطر في البال!
لا أدري إن كانت هذه كلماتي أنا أم هي الكلمات الأخيرة للسيدة ليلى؟ لكنني أتذكر أنها أوصتني بكتابة هذه الكلمات:
«أنا ليلى.. أختكم... دخلت السجن في العراق بإرادة شرطي وقضيت سنوات طويلة تحت الأرض لا أفرق بين الكلاب البوليسية

والكلاب البشرية التي تناوبت على تعذيبي»!
أنا ليلى.. أختكم كنت أهان وأضرب وأعذب كل يوم.. استطعت الإفلات من السجن بمعجزة، لكنني أعرف أن زينب وفاطمة وسعاد وكل صاحبات الأسماء التي تخطر ببالكم مازلن هناك يتعرضن للإذلال والأذى وأقصى درجات القسوة!»

كان الجلاد يتباهى أمام كل سجين وسجينة بالقول:
- لا أحد هنا يمكن أن يساعدك أو ينقذك. لا أحد يعرف بمصيرك، إن حياتك وموتك رهن إرادتي!
ينبغي ألا يستمر هذا!
إن جنس البشر يتعرض للإبادة على يد تلك الوحوش التي تعمل وهي مطمئنة إلى أن البشر ما عادوا يكترثون لما يحل بنسائهم ورجالهم وأطفالهم!
إنني أسمع صرخات الألم تنبعث من هناك.. هل تسمعون؟!

عسى أن أكون قد نقلت بأمانة، جزءاً من محنة امرأة تقول آخر رسائلها أنها فقدت بعض الشيء قدرتها على المشي، وأنها تعرضت لعمليات استئصال أورام عديدة نشأت بفعل التعذيب، لكنها رغم كل شيء لم تفقد الثقة بالإنسان تقول:
. مازلت أعتقد أن الإنسان لم يصب بالخرس، وانه يكترث ويهتم و قد يصل به الأمر حد الصراخ مطالباً بإيقاف حركة دولاب الرعب والموت في العراق!
دمشق ١٩٩٣

إن وقوفي لحظة في قفص الاتهام
وأنا بريء
ينسيني ألف كتاب قرأته عن الحرية
فولتير